

لناظمها شيخ الإسلام

أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الْحَلِيمِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رحمه الله

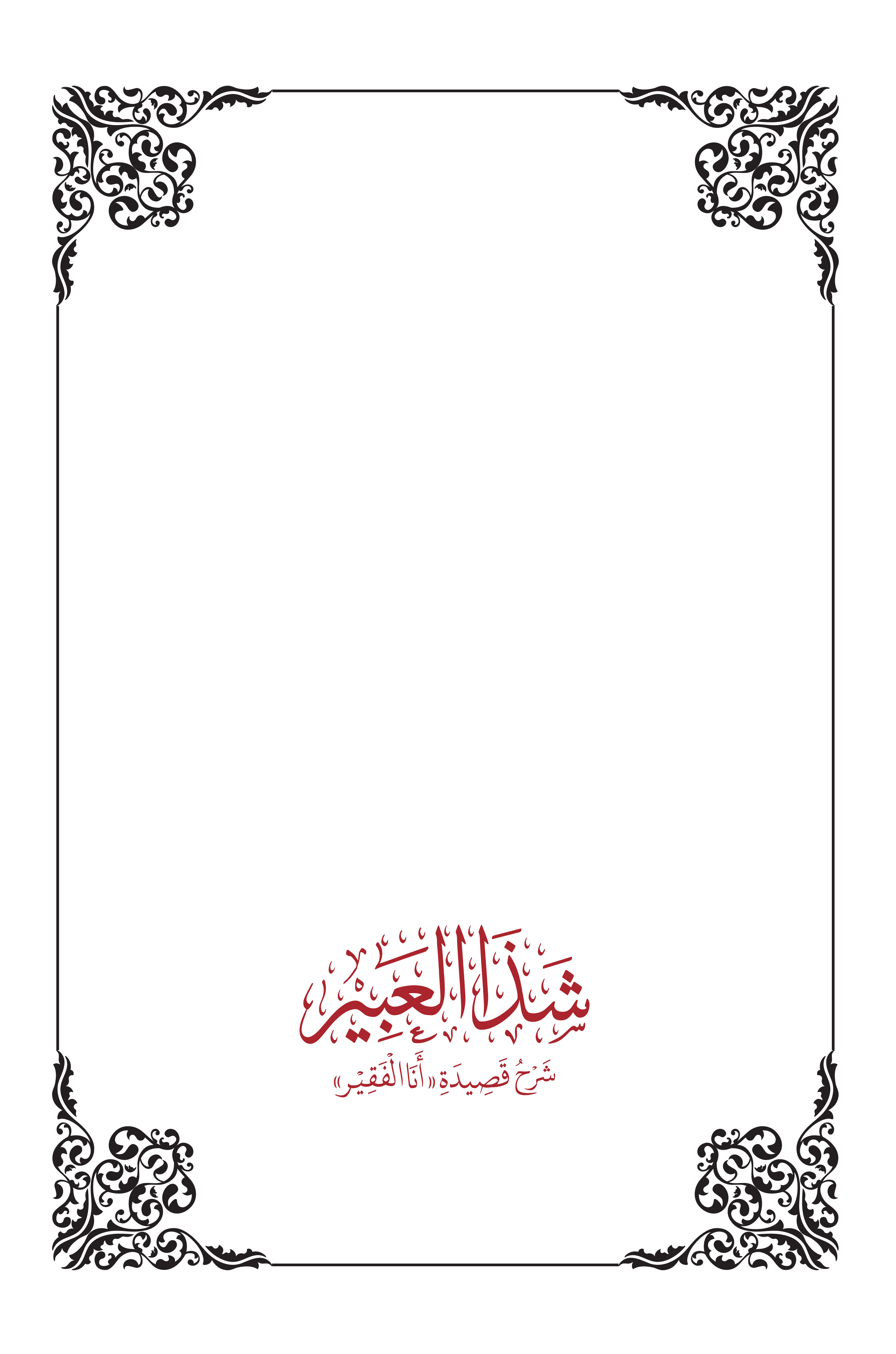
تصنيفُ

الصغيّر بْنُ عمّار الشريكيّ

غفر الله له ولوالديه

النسخة الثانية

1441



شَذَا العَبِير

شَرْحُ قَصِيدَةِ «أَنَا الْفَقِير»

القَصِيدَةُ التَّائِيَّةُ

فِي الافْتِقَارِ إِلَى اللهِ تَعَالَى

لِشَيْخِ الإِسْلَامِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الحَلِيمِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى (ت ٧٢٨هـ)

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (٢/ ١٥٧ - ١٥٩): وَبَعَثَ إِلَيَّ [يَعْنِي: شَيْخَهُ شَيْخَ الإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ] فِي آخِرِ عُمُرِهِ قَاعِدَةً فِي التَّفْسِيرِ بِخَطِّهِ، وَعَلَى ظَهْرِهَا أَبْيَاتٌ بِخَطِّهِ مِنْ نَظْمِهِ:

أَنَا الفَقِيرُ إِلَى رَبِّ البَرِيَّاتِ … أَنَا المُسَيْكِينُ فِي مَجْمُوعِ حَالَاتِي

أَنَا الظَّلُومُ لِنَفْسِي وَهْيَ ظَالِمَتِي … وَالخَيْرُ إِنْ يَأْتِنَا مِنْ عِنْدِهِ يَاتِي

لَا أَسْتَطِيعُ لِنَفْسِي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ … وَلَا عَنِ النَّفْسِ لِي دَفْعُ المَضَرَّاتِ

وَلَيْسَ لِي دُونَهُ مَوْلًى يُدَبِّرُنِي … وَلَا شَفِيعٌ إِذَا حَاطَتْ خَطِيئَاتِي

إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرَّحْمَنِ خَالِقِنَا … إِلَى الشَّفِيعِ كَمَا قَدْ جَا فِي الآيَاتِ

وَلَسْتُ أَمْلِكُ شَيْئًا دُونَهُ أَبَدًا … وَلَا شَرِيكٌ أَنَا فِي بَعْضِ ذَرَّاتِي

وَلَا ظَهِيرٌ لَهُ كَيْ يَسْتَعِينَ بِهِ … كَمَا يَكُونُ لِأَرْبَابِ الوِلَايَاتِ

وَالفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لَازِمٌ أَبَدًا … كَمَا الغِنَى أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي

وَهَذِهِ الحَالُ حَالُ الخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ … وَكُلُّهُمْ عِنْدَهُ عَبْدٌ لَهُ آتِي

فَمَنْ بَغَى مَطْلَبًا مِنْ غَيْرِ خَالِقِهِ … فَهْوَ الجَهُولُ الظَّلُومُ المُشْرِكُ العَاتِي

وَالحَمْدُ لِلهِ مِلْءَ الكَوْنِ أَجْمَعِهِ … مَا كَانَ مِنْهُ وَمَا مِنْ بَعْدُ قَدْ يَاتِي

ضَبَطَهَا العَبْدُ الفَقِيرُ إِلَى رَبِّهِ الغَنِيِّ:

أَبُو العَبَّاسِ حُسْنِي بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَسَانَيْنِ الجُهَنِيُّ

وَزَخْرَفَهَا بِقَلَمِهِ أَزْرَقًا: الخَطَّاطُ عُثْمَانُ بْنُ طه

١٤٣٣هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي يَصمُدُ إليه الغَنيُّ والفقير، تعالى وتَقَدَّس عن المُنازِع والشريك والظهير، له الحمد في الأولى والآخرة، يحيى ويُميت وهو على كُلِّ شيءٍ قدير، طيَّبَ ذِكرُه أفواهَ المُحبِّين ففاحَت من شَذَا المِسك ورائحة العَبير، تفَرَّد بكمال الحياة ومُطلَق الغِنى، وحَكمَ على عِباده بدَوام الفَقر وحَتْميَّةِ الفَنَاء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[فاطر: ١٥]، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادَةَ الإقرار بالتوحيد، وأشهد أنَّ مُحمدًا عبدُه ورسولُه، أرسله اللهُ بالدعوة إلى الحقِّ والنَّذارَة عن الإشراك والتنديد، مَن سَلَك سبيلَه فهو المُقَرَّبُ السَّعيد، ومَن حادَ عَن هَديِه وسُنَّتِه فهو الشَّقيُّ البعيد، صلَّى الله عليه وعلى آلِه وصَحبِه نُجومِ الاهتداء، الذين سَارُوا إلى الله بين منازل الحُبِّ والخَوفِ والخُشوع والإخباتِ والرَّجاء، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، وجَمَعنا بهم في مَنازِل السُّعَداء.

أما بعد،

فهذا شرح متوسط على **قصيدة**: «**أنــا الفـقـيـر**»، **لشخ الإسلام أحمدَ بنِ عبد الحليم ابن تيمية الحَرَّاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، وأصل هذا الشرح مجلس إملاء ألقيته عبر «**شبكة الأنترنت**» على مجموعة من الإخوة والأصدقاء.

وكان ذلك ضحى الأحد 16 من رمضان لعام 1438، الموافق لـــ 11 جوان من عام 2017 ميلادي.

وقد قام بتفريغه من الدرس الصوتي، عن طريق «برنامج حاسوبي» خاص بالتفريغ، الأخ الفاضل الخَلوق خيرالدين بن أبي بكر الغول وفقه الله، وبارَكَ في علمِه وعملِه، وأصلح له الأهلَ والذُّرِّية.

وبعد استخارة المَولى جَلَّجَلَالُهُ، راجعت التفريغ، وحرَّرته، وأضفت له العديد من المسائل، وعزوت نُقولَه إلى كتب أهل العلم، **إذْ مِن بركة العلم نِسبةُ كُلِّ قولٍ لصاحبِه، وعَزوُ كُلِّ نَقلٍ لكاتِبه،** وربما أحَلْتُ على ما يَسَّر اللهُ لي جمعَه وتَرتِيبَه، أو انتقاءَه وتهذيبَه، وليس ذلك من باب المفاخرة والإشادة، ولكن طلَبًا للاختصار والإفادة، والله مِن وراء القصد.

وما أجمل قول الحافظ أبي زكريا النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة كتابه «بستان العارفين» [1]: «**وربما أحَلتُه على كتاب صنَّفتُه أنا، ولا أقصد بذلك -إن شاء الله تعالى- التَّبجُّحَ والافتخار، ولا إظهار المصنفات والاستكثار، بل الارشادَ إلى الخير والإشارةَ إليه، وبيان مَظِنَّته والدلالة عليه،** وإنما نَبَّهتُ على هذه الدقيقة، لأني رأيت

1- انظر «بستان العارفين» (ص 28). والمقصود التنبيه عن هذا الأصل، وإلا فالحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في واد -علما وعملا وديانة ومكانة- والناقل لكلامه في واد!! فإني أعزو لبحوث جمعتها في أوقات متفرقة ليس لي فيها سوى الجمع والترتيب، مستفيدا من أهل الصناعة والتفتيش والتنقيب، ولكنَّ الشرفَ كل الشرفِ بالنقل عن مُصنَّفاتِهم، والاقتباس مما ورَّثوه من العلم بعد وفاتهم. رحم الله علماء المسلمين، وجمعنا بهم في أعلى عليين...

من الناس مَن يَعِيب سالِكَ هذه، وذلك لجهالته، وسوء ظنه، وفساده، ولحسده، وقُصورِه، وعناده!!

فأردت أن يتقرر هذا المعنى في ذهن مُطالِع هذا التصنيف، وليُطَهِّر نفسَه من الظنِّ الفاسد والتَّعنِيف، وأسأل الله الكريم توفيقي لحسن النيات...». إلى آخر كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وكان البدءُ في هذا تحرير هذا الشرح عَصرَ الجمعة 13 من شهر شوال 1438، الموافق لـ 07 من جويلية 2017، وانتهيتُ منه تعليقًا وتَنسيقًا -بفضل الله سُبحانه- ليلةَ الاثنين 22 مِن شهر ذي القعدة لعام 1438، الموافق لـ 14 أوت 2017 بمدينة «تُلوز» بفرنسا، وسمَّيتُه: **«شَذَا العَبِير شرح قَصِيدَة: «أنـــا الفــقــيــر»»**.

والشَّذَا: شِدَّةُ ذكاءِ الرِّيحِ الطَّيِّبة.[2]

وأما **العَبِير**: نوعٌ مِن الطِّيب ذُو لَون، يُجْمَع مِن أخْلاَط.[3]

وعليه، فـ «**شَذَا العَبِير**»: هو شدَّةُ رائِحَةِ الطِّيب، وهذا لا يَكون إلا باتباع منهج الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، إذْ لا عِصمَةَ للعبد إلا في لُزوم طريقتِهم، ولا نَجاةَ له إلا في رُكوب سفينتِهم، وما سِوى ذلك فآراءٌ مُهلِكة، وأهواء مُنتِنَةٌ، يا لله كم أزكَمت مِن أُنوف! وكم أضَلَّت مِن جُموعٍ بالأُلوف!!

2- انظر «لسان العرب» (14/ 427). والشَّذى بالقَصر هو: الشر والأذى، يُقال: أذَيتُ وأَشْذَيْتُ. انظر «النهاية في غريب الحديث» (ص 633)، لابن الأثير، «شذا».

3- «النهاية في غريب الحديث» (ص 775)، «عبر».

اللهُمَّ أَصْلِح لنَا دِيننا الَّذِي هو عِصْمةُ أَمْرِنا، وَأَصْلِحْ لنا دُنيانا التي فيها مَعاشُنا، وَأَصْلِحْ لنا آخِرَتَنا التي فيها مَعادُنا، واجعَل الحياةَ زِيادةً لنا في كُلِّ خَير، واجعَل الموتَ راحَةً لنا مِن كُلِّ شَر. [4] هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه، وسلَّم.

وكتب[5]: الصغيّـر بن عمّـار

ظهر الاثنين 22 من ذي القعدة لعام 1438

الموافق لـ 14 أوت 2017 بمدينة «تـولـوز» بفرنسا

4- هذا دعاء نبوي جامع، رواه مسلم في «صحيحه» (2720)، بلفظ: «اللهُمَّ أَصْلِح لي ديني...»، **وفي هذا الدعاء: خير الدين، وخير الدنيا، وخير الآخرة.** وإذا صلَحت لك هذه الثلاث، فما الذي يضرك؟!! وإن ضاعت عنك، فبئس من غَرَّك؟!!

5- وأعدت النظر في هذا الكتاب واختصار مباحثه، مع استدراك بعض الأخطاء التي نبهني عليها **شيخُنا عبد الله العنقري** -نفع الله به-، حيث شرَّفني بقراءة الشرح مع التعليق على بعض المواطن منه، وأثبتُّ ذلك في هذه النسخة الجديدة. فجزاه الله خيرا مِن ناصح ومُعلِّمٍ للخير. وقد ختم رسالته لي بقوله: «**وفي الختام فالشرح مفيد. والحاجة لإخراجه ماسة، خاصة وأن منحرفي الصوفية هم أكثر من يتكلم في هذه الموضوعات**».

واطلع عليه أيضا شيخنا صالح بن عبد الله العصيمي -عضو هيئة كبار العلماء- ووعدني بإرسال بعض الإفادات ولم يتيسَّر ذلك بعد. ومتى وصلتني توجيهاته -حفظه الله- سأضيفها بإذن الله وعونه.

وقد تمَّ الانتهاء من مراجعة هذه النسخة الثانية للشرح: صبيحة الثلاثاء 05 من جمادى الأول لعام 1441، الموافق لـ 31 ديسمبر 2019، بمدينة «لــيون» بفرنسا.

شرح القصيدة

قال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أنـــا الفَقـــيرُ إلى رَبِّ البَريّـــــــــــات ... أنـا المُسَـيكينُ في مَجْمـوعِ حــــالاتِـي
أنـــا الظَّلُـــومُ لنَفْسـي وهِـيَ ظـالِمَتي ... والخَـــيرُ إنْ يَأتِنــا مِــنْ عنــدِهِ ياتِـــي
لا أسْــتطيعُ لِنَفْســي جَلْــبَ مَنْفَعَـــةٍ ... ولا عَـنِ النّــفْسِ لـي دَفْــعُ المَضَــرّاتِ
ولــــيْسَ لــي دُونَــهُ مَـوْلىً يُدَبِّـرُنـــي ... ولا شَــفيعٌ إذا حاطَــتْ خَطِيئـــــاتِــي
إلا بــإذنٍ مِــنَ الــرّحْمنِ خالِقِنـــــا ... إلى الشَّـفيعِ كَمـا قـدْ جا في الايــــاتِ
ولسْــتُ أَمْلِـكُ شـيئاً دُونَـهُ أبَـــــداً ... ولا شَــــريكٌ أنـــا في بَعْــضِ ذَرَّاتِـــي
ولا ظَهـيرٌ لَـــهُ كَـي يَسْــتَعينَ بـــــهِ ... كمـــا يكـــونُ لأرْبـــابِ الولايــــاتِ
والــفَقْرُ لــي وَصْــفُ ذاتٍ لازِمٌ أبَـداً ... كمـا الغِـــنى أبَــداً وَصْـفٌ لَــهُ ذاتِـــي
وهـــذِهِ الحَــالُ حَــالُ الخَلْـقِ أجْمَعِهِـمْ ... وكُــلُّـــهُمْ عِـــنْدَهُ عَـبْــدٌ لَـــهُ آتِـــي
فَــمَنْ بَــغى مَطْلَبـاً مِـنْ غَيْـرِ خــالِقِهِ ... فَهْـوَ الجَهـولُ الظَّلُـومُ المُشْــرِكُ العَـاتِي
والحَـــمْدُ للهِ مِـــلْءَ الكَــوْنِ أجْمَعِـــهِ ... مـا كـانَ مِنْـهُ ومـا مِـنْ بَعْـدُ قَـدْ يَـاتِـي

التعريف بالقصيدة

هذه أبيات راقية لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان قد أرسلها إلى تلميذه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آخر عمره، كما ذكر ذلك أبو عبد الله ابن القيم نفسُه في «**مدارج**

السالكين» [6] لما تكلم عن «منزلة الخشوع» وعن الانكسار بين يدي الله وإظهار المَسكَنة والفاقَة والذُّل والخُضوع له سبحانه، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وبعَث إلي [أي ابن تيمية] في آخِرِ عُمرِه قاعدَةً في التفسير بِخَطِّه، وعلى ظَهْرِهَا أَبْيَاتٌ بِخَطِّهِ مِنْ نَظْمِهِ»، ثم ذكر هذه الأبيات.

وذكرها أيضا تلميذه النجيب ابن عبد الهادي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «**العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**»، وذكر أنه قالَها في آخر حياته وهو بسجن القَلعة. [7]

وكذلك، نَسبها إليه تلميذُ تلميذِه أبو الفرج ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، حيث قال في رسالته «**اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى**» [8]: «ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى...»، ثم ساق البيتين الأولين من القصيدة بلفظ مقارب. [9]

6- (1/ 392). وذكر منها بيتا واحدا في مطلع «طريق الهجرتين» (ص 11)، وكذلك لما تكلم عن «منزلة الفقر» في «مدارج السالكين» (2/ 152)، و«منزلة الإنابة» (1/ 327)، وهو قوله: «والفقر لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبدًا...». إلخ.

7- انظر «العقود الدرية» (ص 450). وفيها بيت زائد في آخرها، وهو:

ثـــمَّ الصَّـــلَاة علـــى الْمُخْتَـــار مـــن مُضَـــرِ   خيـــرِ البَرِيَّـــة مـــن مَـــاضٍ ومِـــن آتِـــي

قال محقق الكتاب (ط. المجمع) عن هذه الزيادة: «البيت الأخير لم يذكره ابن القيم، وليس هو من نظم شيخ الإسلام كما بيَّنه ناظمُه في نسخته التي بخطه (الكواكب الدراري- الظاهرية رقم 597 – ق 89)». انتهى

8- «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/ 139).

9- وهما:

أنـــا الفقيـــرُ إِلَـــى رب <u>**الســـماوات**</u>   أنـــا المُسَيـــكينُ في مَجْمـــوع حـــالاتِـــي

=

وهذه القصيدة من بحر «**البسيط**» [10]، وعِدَّتُها أحد عشَر بيتًا (11)، **فهي قَليلة في** كلماتها، سَلِسة في ألفاظها، جَزيلة في معانيها، غزيرة في فوائدها، وهذا الذي حداني لإقرائها والتعليق عليها، بعَون الله وتوفيقه.

ومما يَحسُن التنبيه عليه، أن لشيخ الاسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشاركةً حَسَنةً في النظم، وله أشعار جَميلةٌ مَبثوثَةٌ في كتبه وكتب تلاميذه، جمعها الشيخ عبد السلام بن برجس رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتاب سماه «**مجموع شعر شيخ الإسلام ابن تيمية**» [11]، ومن ذلك «التائية في القدر»، وهذه «التائية في السلوك»، و«اللامية في الاعتقاد»، و«ألغاز فقهية»، وغير ذلك من جَميل الأبيات وعَذب الكلمات، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة على ما قدَّم في سبيل نصرة دين الله بالسِّنان واللِّسان والبَنان نثرا ونظما.

=

أنـــا الظَّلُـــومُ لنَفْســي وهِـــيَ ظـــالِمَتي والْخَيْــرُ إنْ جاءَنــا مِــنْ عِــنْدِهِ يــاتِــي

10- وتفعيلاته هي:

مســتفعلن فـــاعلن مســتفعلن فـــاعلن مســتفعلن فـــاعلن مســتفعلن فـــاعلن

قال الناظم:

إن البســـيطَ لديـــهِ يُبَســـطُ الأمـــلُ مســتفعلن فـــاعلن مســتفعلن فَعِـــلُ

انظر «العَروض المختصَر» (ص 75-80)، لنور الدين صَمُّود.

11- ويُسمى أيضا «الصحيح من النظم الفَصيح» في 44 صفحة، وقد طُبع بذيل كتاب «إبطال نسبة الديوان المنسوب لشيخ الإسلام ابن تيمية»، ثم طُبع في مجموع مؤلفاته وتحقيقاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن قريب (2/ 37، ترقيم مستقل لكل رسالة).

وصدق تلميذُه وصاحبُه ابنُ القيم حين قال فيه:

ولـــه الـــمَقاماتُ الشَّـــهيرَةُ في الـــوَرى قـــــد قامَهــــــا لله غـــــيرَ جَبـــــانِ

نصَـــــر الإلـــــهَ ودينَـــــه وكتابَـــــه ورســــــولَه بالسَّــــــيف والبُرهــــــانِ

وهذه القصيدة اللطيفة التي مَطلَعُها «أنا الفقير...»، نستطيع أن نُعطيها عنوانا، ونُسمِّيَها: «**قصيدة في الافتقار والمَسكنة والخُضوع لله** سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ» [12]، لأن الناظم استفتحها رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله:

أنـــا الفَقـــيرُ إلى رَبِّ البَريّـــــــــاتِ أنـا المُسَـيكينُ في مَجْـمــوعِ حـــــالاتِـــي

12- وسماها الشيخ ابن برجس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**تضرع إلى الله وافتقار إليه**».

تعريف الفقر والمَسكَنة لله

والفقر: ضدُّ الغِنى، وليس المقصود به هنا قِلَّة المال وضعف ذات اليد، بل المقصود به هو الفقر لله جل وعلا إخباتا وخُضوعا وخُشوعا ومَسكنة له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. [13]

والفقر بمعنى قلة المال ليس ممدوحًا في ذاته، إنما يُمدحُ إذا رافقه الصبر على تلك الحال، وإلا فقد تجد في سِلك الفقراء من ملأَ الكِبرُ قلبَه وغطَّى الجبروتُ فؤادَه، كما جاء في الحديث: «**ثَلَاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**»، وفيهم: «**وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ**» [14]، وقد يكون غنيا وهو من أطوَع الناس وأتقاهم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

يقول شهاب الدين القرافي رَحِمَهُٱللَّهُ [15]: «ليس الزهدُ عَدمَ ذاتِ اليَد، بل عَدمُ احتِفال القلب بالدنيا وإن كانت في مِلكه، فقد يكون الزاهدُ من أغنى الناس وهو

13- **انظر كلام شيخ الإسلام في مصطلح «الفقر»** بين الزهاد والمتصوفة من جهة، وبين ما جاء في الكتاب والسنة وكلام الصحابة ومن تبعهم من جهة أخرى، وذلك في عدة مواطن من كتبه ومن «الفتاوى»، «الفهارس» (36/ 656-657)، وعنه ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص 207)، ومواطن أخرى، وانظر «منزلة الفقر» في «مدارج السالكين» (2/ 151)، وفصولا نافعة في الفقر لله وكمال غنى الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في «طريق الهجرتين» ...

14- رواه مسلم (106).

قال شيخ الإسلام في «الفتاوى» (18/ 326): «فالمسكين المحمود هو المتواضع الخاشع لله؛ ليس المرادُ بالمَسكنة عَدَمَ المال، **بل قد يكون الرجل فقيرا من المال وهو جبار** كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الحديث الصحيح: «**ثلاثة لا يكلمهم..**».

15- «الذخيرة» (13/ 245).

زاهدٌ، **وقد يكون الشديدُ الفَقر غيرَ زاهد بل في غاية الحِرص بحَسب ما اشتمل عليه قلبُه من الرغبة في الدنيا**». انتهى

وعليه، فقد يكون في الفقراء من هو أفضل بكثير من الأغنياء، وقد يكون في الأغنياء من هو أفضل بكثير من الفقراء.

وقد تنازع الناس أيهما أفضل: الفقير الصابر أو الغني الشاكر؟

والصحيح أن أفضلَهما أتقاهما، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣]، فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة.

وأما أنَّ الفقراءَ يسبقون الأغنياء إلى الجنة، فلأنه لا حساب عليهم، بخلاف الأغنياء الذين يحاسبون على أموالهم، فمن كانت حسناته أرجحَ من حسنات فقير كانت درجته في الجنة أعلى وإن تأخر عنه في الدخول، ومن كانت حسناته دون حسناته كانت درجته دونه. (16)

والحاصل، أنَّ الفقرَ المحمودَ هو الفقر لله، بالافتقار والمَسكنة بين يديه

16- انظر «مجموع فتاوى ابن تيمية» (11/ 12)، و«فهارس الفتاوى» (11/ 12)، وعدة مواضع أخرى من كتبه، وعنه جماعة ممن جاء بعده، وفصل كلامه ابن القيم -كعادته- في «عدة الصابرين».

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الشرح الممتع» (10/ 455، ط. الوقفية): «فشيخ الإسلام يبني العظم، وابن القيم يُلبِّس ويُزيِّن ويصبغ، ويأتي بأشياء يوضح فيها كلام الشيخ...». انتهى، وهو مختصر في الطبعة الرسمية لمؤسسة الشيخ (13/ 53).

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا هو الذي مدحته الشريعة، **ولفظ «الفقر» في الشرع**: [17]

- **يراد به فَقرُ المخلوق إلى خالقه**، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥]، وهؤلاء لا مقابل لهم، بل الله وحده الغني، وكل ما سواه فقير إليه.
- **ويُراد به الفقرُ من المال** كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، ويُقابلهم الأغنياء وأصحاب الجِدَة. وهؤلاء صنفان: أهلُ الصدقات، وأهلُ الفيء.

قال الله جَلَّجَلَالُهُ في الصنف الأول: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[البقرة: ٢٧٣].

وقال جلَّ وعَلا في الصنف الثاني -وهم أفضل الصنفين-: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾[الحشر: ٨]، وهذه صفة المهاجرين الذين هجروا السيئات، وجاهدوا أعداء الله باطنا وظاهرا.

قلت: والمقصود بهم هنا: أهلُ الفيء وهم الفقراء المجاهدون المهاجرون الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق حتى صاروا فقراء بعد أن كانوا أغنياء، فجاء الأمر الإلهي بإعطائهم من الفيء جَبرًا لما نُـكِبوا به مِن ضياع الأموال والديار. [18]

17- انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص 43، بتصرف)، و«مدارج السالكين» (2/ 410).

18- انظر: «الصارم المسلول» (ص 156»)، والتحرير والتنوير» (28/ 89).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أنا الفَقيرُ إلى رَبِّ البَرِيّـاتِ**)، و(**الربُّ**): هو المالِكُ، المدبِّرُ، الذي ربىَّ خلقَه بجميع النِّعم.

والْبَرِيَّاتِ: جمع بريَّةٍ، وهي الخليقة.

فالله ربُّ الجميع، من كافرٍ ومُطيع، وتفصيل ذلك أن تَعلمَ أنَّ **تربية الله لخلقه نوعان**: [19]

- **عامة**، تكون بتدبير شؤون العبد، وخَلقه، ورَزقه، وإيصال النِّعم إليه.
- **وخاصة**، لا تكون إلا لأوليائه وأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم.

ولهذا كثُرَ دعاءُ المؤمنين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة، كما منَّ الله عليهم بالتربية العامة.

وفي قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أنا الفَقيرُ إلى رَبِّ البَرِيّـاتِ**)، إشارة لطيفة إلى أن الذي تَفَرَّدَ بالربوبية، ينبغي أن يُفرَدَ بالعبادة والإلهية، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي خَلقَ هذا الكون ويتصرَّفُ فيه بقُدرته وحِكمته، هو الذي ينبغي للعبد أن يُظهِر له افتقارَه ومَسكنَتَهُ وخُضوعَه وخُشوعَه بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أنا المُسَيْكينُ في مَجْموعِ حـالاتِي**)، في كثير من النسخ: «أَنَا المِسْكِين»، وهذا غَلَطٌ، لأن الوزن لا يستقيم بذلك.

والمُسَيْكِين: تَصغير للفظ «المسكين»، **وهذا –والله أعلم– لأمرين**:

- المبالغة في المسكنة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

19- انظر «تفسير السعدي» (ص 27).

- وللضرورة الشعرية.

فيكون لفظ «**المُسَيْكِين**» هو الأنسبُ معنًى ووزنًا. [20]

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أنا المُسَيْكينُ في مَجْموعِ حالاتِي**): أي في جميع هيئاتي: شدةً ورخاءً، أمنًا وخوفًا، عند فعل الطاعة وعند مقارفة المعصية، ففي كل هذه الحالات لا بد أن يُظهِرَ العبدُ مَسكنَتَه وافتقارَه لله جل وعلا، حتى لا تُطغيه نِعمة، ولا تُسخِطَه نِقمة، ولا يَغترَّ بطاعة، ولا يهلَكَ بمَعصية.

فكم من إنسان كان على حالٍ سويٍّ، فحلَّت به نعمة أطغته فهلك، وفي مثل هذا قال الله جل وعلا: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦].

وكم من إنسان كان على حالٍ سويٍّ، فنَزلت به مصيبة أضعَفتهُ فهلك، وفي مثل هذا قال الله جل وعلا: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾[العنكبوت: ١٠]، أي فلما أصابه بلاء من الناس جزع ولم يصبر، فافتتن في دينه وارتد عن إيمانه، والعياذ بالله.

20- وقد استدرك علي شيخُنا عبد الله العنقري هذا بقوله: «**لم يتضح لي وجه كون (المسيكين) ضرورة شعرية، مع مناسبته للوزن واللغة**». فأجبته –حفظه الله– بأنَّ المعبَّر به غالبا هو لفظ المِسكين في اللغة والشرع، واختيار شيخ الإسلام له لا شك أنه يوافق اللغة والوزن، غير أن تقديمه لتصغير لفظ المسكين مقصود لمراعاة الوزن بالأساس، ولهذا لم يستعمل: عُبيد وغير ذلك من صيغ التصغير. والله أعلم.

وما أجمل هذا الدعاء الذي ذكره الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مَطلَع كتابه «الوابل الصيب»[21]، حيث قال: «... **وأن يجعلكم ممن إذا أنعم عليه شَكَر، وإذا ابتُلي صَبَر، وإذا أذنب استغفَر**»، ثم قال: «**فإن هذه الأمور الثلاثة عنوان سعادة العبد،** وعلامة فلاحِه في دنياه وأُخراه، ولا يَنفكُّ عبدٌ عنها أبداً، **فإن العبد دائمُ التَّقلُّبِ بين هذه الأطباق الثلاث**»، ثم فَصَّلها تفصيلا حسنًا كعادته عليه رحمة الله، **وخلاصة ذلك أن يُقال إنَّ العبدَ يتنقَّلُ بين:**

- نِعَمٍ من الله تعالى تترادف عليه، فقَيدُها الشكر.
- ومِحَنٍ من الله تعالى يبتليه بها، ففَرضُه فيها الصَّبر. [22]
- وذنوبٍ ابتُلِيَ بها، فرضُه فيها أن يتوبَ ويستغفر.

ولهذا لَمَّا ذكر شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ [23] صفاتِ أولياءِ الله المُتَّقينَ، قال: «**هم الَّذين فَعَلوا المَأمورَ، وتَركوا المَحظُور، وصَبَروا على المَقدور، فأَحَبَّهُم وأَحَبُّوه، ورضِيَ عنهُم ورَضُوا عنه**». انتهى

فالعبد ينبغي له أن يكون مُتَمَسكِنًا، متواضعا لله جل وعلا في مجموع حالاته، وما

21- وعنه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة «القواعد الأربع»، وقد أشرت إلى ذلك في أول كتابي المسمى «الشرح الميسر المفيد على أربع قواعد في التوحيد»، بتقديم شيخنا بدر بن علي بن طامي العُتيبي حفظه الله تعالى.

22- انظر: «الوابل الصيب» (ص 3)، وكتابي: «تسلية المؤمنين بهوان مصيبة الدنيا عند سلامة الدين».

23- «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص 109).

أجمَلَ قولَ ابنِ القيم في فصلٍ عَقَدَه في كتابه «الفوائد» [24] حول تواضُع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فتح مكة، ففي قِمَّة النَّصر الذي لو كان لغيرِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلا في الأرض وأفسَدَ فيها، وفي تلك الحالِ التي عادَةُ النُّفُوسِ البَشَرِيَّةِ فِيهَا: أَنْ يَمْلِكَهَا سرورُهَا، وفرَحُهَا بِالنَّصرِ، والظَّفَرِ، وَالتَّأْيِيدِ، وَيَرْفَعُهَا إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ، ولكنه دخلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذَقْنُهُ تَمَسُّ قَرَبُوسَ سَرْجِهِ [25] خُضوعًا وذُلا لمن ألبسهُ ثوب هَذَا الْعِزّ الَّذِي رفعت إِلَيْهِ فِيهِ الخليقةُ رؤوسَها، ومَدَّت إِلَيْهِ الْمُلُوك أعناقَها فَدخل مَكَّة مَالِكًا مؤيدا منصورا، قد لبِسَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثوبَ الانخفاض والانكسار، بين يدي الملِك الجبَّار، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذه هي شِيَمُ العظماء، الذين لا تطغيهم نعمة، ولا تسخطهم نقمة، يشكُرونَ عند الرخاء، ويَصبِرون إذا نزل البلاء، وإذا فعلوا طاعة حمدوا الله عليها، وعلِموا أنها بتوفيق من الله، وإذا ابتُلُوا بمعصية علِموا أنها من أنفسهم ومن الشيطان، وأنها من خِذلان الله لهم، فاستغفروا ربهم وأنابوا إليه، فهم ينتقلون بين مشاهد العبودية في السراء والضراء، وفي الشدة والرخاء، وهؤلاء هم الأحرى والأولى بأن يدخلوا جنَّاتٍ عرضُها السموات والأرض لا ينقطع نعيمُها بحال من الأحوال، جزاءً على عبوديتهم التي لم تنقطع بحالٍ من الأحوال.

24- انظر: (ص 78)، ونحوه في «مدارج السالكين» (2/ 119).

25- القَرَبُوسُ: حِنْوُ السَّرْج، وهو قسمه المقوَّس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره. انظر «لسان العرب» (6/ 172).

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ [26]: «فالمسكينُ في الحقيقة من استكان قلبُه لربه، وخشَع من خَشيته ومحبته، ولا يكون المسكينُ ممدوحًا بدون هذه الصفة، **فإن من لم يخشَع قلبُه مع فَقره وحاجتِه فهو جَبَّار**...

فالمؤمنُ يَستكِين قلبُه لربه ويَخشَع له ويتواضع، ويُظهِر مَسكنتَه وفاقتَه إليه في الشدة والرخاء، أما في حال الرضا فإظهارًا للشكر، وأما في حال الشدة فإظهارًا للذُّل والعُبودية والفاقَة والحاجة إلى كَشف الضُّر، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٧٦]، فذَمَّ من لا يَستكين لربه عند الشدة، وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخرُج عند الاستسقاء متواضعًا متخشعًا مُتَمَسكِنًا [27]». انتهى

26- «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/ 135)، وانظر له رسالة في الباب بعنوان «**الذل والانكسار للعزيز الجبار**» ضمن «مجموع الرسائل» (1/ 275)، و«مشهد الذل والانكسار» في «مدارج السالكين» (1/ 318).

27- رواه أحمد (2039)، وأصحاب السنن، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (1505).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أنا المُسَيْكِينُ في مَجْموعِ حالاتِي**): أي الخاشع المتواضع المُفتَقِرُ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كل حال، ويشهد لهذا المعنى قولُه ﷺ: «**اللهُمَّ أحْيِني مِسْكيناً، وتَوفَّنِي مِسْكيناً، واحْشُرْني في زُمْرَةِ المَساكِينِ**». [28]

ووَجْهُه -كما قال البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ- [29]: «أنه لم يسأل [صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ] حال المَسكنة التي يَرجِع معناها إلى القِلَّة، وإنما **سأل المَسكنة التي يَرجِع معناها إلى الإخبات والتواضع** [30]، فكأنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سأل الله تعالى أن لا يجعله من الجبارين المتكبرين، وأن لا يحشره في زمرة الأغنياء المترفين». انتهى

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ [31]: «المساكين ضد المتكبرين، وهم الخاشعون لله، المتواضعون لعظمته الذين لا يريدون علوا في الأرض، سواء كانوا أغنياء أو فقراء». انتهى

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [32]: «**المَسكَنةُ التي يحبُّها اللهُ مِن عبدِه ليست فَقرَ المال، بل مَسكَنةُ القلب**، وهي انكسارُه وذُلُّه وخُشوعُه وتواضُعه لله، وهذه المَسكَنةُ لا تُنافي الغِنى، ولا يُشترط لها الفقرُ، **فإنَّ انكسارَ القلب لله، ومَسكَنتَه لعظمتِه وجلالِه وكبريائِه**

28- رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (4126).

29- «السنن الكبرى» (7/ 19)، انظر: «السلسلة الصحيحة» (1/ 619) للألباني.

30- انظر الكلام على منزلتي «الإخبات»، و«التواضع» في «مدارج السالكين» (1/ 396)، (2/ 68).

31- «الفتاوى» (11/ 130)، وانظر جوابَه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بخصوص هذا الحديث روايةً ودِرايةً، في «الفتاوى» (18/ 326).

32- «عِدَّةُ الصابرين» (ص 202).

وأسمائه وصفاتِه أفضلُ وأعلى مِن مَسكَنةِ عَدَمِ المال...». انتهى

وضد المَسكنَة هو التكبُّر والتجبُّر والعُلوُّ في الأرض، وهذا الذي تبرأ منه رسولُ الله عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما قال: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴾ [مريم: ٣٢].

وهذه المَسكنَةُ سرُّ سعادة المرء وفلاحه، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [33]: «فلا شيءَ أنفعُ للصادق من التحقق بالمَسكَنة والفاقة والذُّل، وأنه لا شيء، وأنه ممن لم يَصِحَّ له بَعدُ الإسلامُ حتى يَدَّعِيَ الشرفَ فيه». انتهى

ولقد ضَرَبَ ناظمُ هذه الأبيات شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أَروَعَ الأمثلة في التواضُع**، فهو -مع ما كان عليه من العلم والعمل والجهاد- كان مُتواضِعًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حتى إنه كان كثيرا ما يقول: «**ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء**»، وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول: «**والله إني إلى الآن أُجَدِّدُ إسلامي كُلَّ وقت، وما أَسلمتُ بَعدُ إسلامًا جيِّدًا**». [34]

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [35]: «**فحقيقة الفقر أن لا تكون لنفسِك، ولا يكونَ لها منك شيء، بحيث تكونُ كلُّك لله**، وإذا كنت لنفسِك فثَمَّ مِلك واستغناءٌ مُنافٍ للفقر». انتهى

33- «مدارج السالكين» (1/ 392).

34- نقل هذا عنه تلميذه ابن القيم في «مدارج السالكين» (1/ 382)، ثم ساق هذه الأبيات التي نحن بصدد شرحها.

35- «مدارج السالكين» (2/ 152)، «منزلة الفقر».

وفي الحقيقة، لا يصل إلى هذه المرتبة إلا من وفقه الله من عباده الصادقين، الذين جَمَعوا بين حُسن العمل مع الخوف والخضوع لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ. [36]

ومن تأمَّل حال الأنبياء، ومَن بعدهم من سادات الأولياء كالصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، وَجد عندهم مِن المَسكنَة والخُضوع والانكسار بين يدي الله ما يقف عنده العبدُ مُتَعَجِّبا، والناظرُ في سيرهم مُستَغربا، ولكن كما قيل: «من لم يشاهد جمال يوسف المحبوب، لم يدر ما الذي ألمَّ بقلب يعقوب!».

قال ابن الجوزي [37]: «**إذا تَمَّ علمُ الإنسان، لم يَـرَ لنفسِه عملا، وإنما يرى إنعامَ المُوَفِّق لذلك العمل**»، ثم قال رَحِمَهُٱللَّهُ: «**وتأمل على الفُطَناء أحوالَهم في ذلك:**

فالملائكة الذين يسبحون الليل والنهار، لا يفترون، قالوا: «ما عبدناك حق عبادتك».

والخليل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ يقول: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي﴾ [الشعراء: ٨٢]، وما أدَلَّ بتَصَبُّرِه على النار، وتسليمِه الولدَ إلى الذبح.

ورسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول: «**ما مِنكم مَن يُنجِيه عَملُه**»، قالوا: ولا أنت؟ قال: «**ولا أنا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَته**». [38]

36- انظر «نُصحُ المؤمنين وتِبيَانُ مَنازِلِ السَّائرين: شرحٌ قَصِيدَة السَّيرِ إلى الله والدَّارِ الآخِرَة»، «منزلة الرجاء»، للمؤلف.

37- «صيد الخاطر» (ص 284)، ولابن القيم نحوه في «طريق الهجرتين» (ص 171)، وقال: «وهذا هو مشهد الرسل...».

38- رواه البخاري (6463)، ومسلم (2816).

وأبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: «وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟!».

وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: «لو أن لي طلاع الأرض، لافتديت بها من هول ما أمامي قبل أن أعلم ما الخبر».

وابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: «ليتني إذا مِتُّ لا أُبعث».

وعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا تقول: «ليتني كنت نسيًا منسيًا».

وهذا شأن جميع العقلاء، فرضي الله عن الجميع». انتهى كلامه رَحِمَهُٱللَّهُ.

وهؤلاء هم الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فبالرغم من أنهم قد بُشِّروا بجنات النعيم وهم في دار العمل، ولكن خوفَهم من الله وإجلالَهم لعظمته وهَضمَهم لأنفسِهم جَعَلهم يَنسَونَ فضائلَهم ولا يكادون يُفكِّرون إلا فيما قارفوا من الزلل، فرضي الله عن تلك الأشباح، وقدس الله تلك الأرواح.

ظلم العبد لنفسه

ثم قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أنـــا الظَّلُـــــومُ لنَفْســي وهِــيَ ظـالِمَتِي   والخَـــيرُ إنْ يَأتِنــا مِــنْ عنــدِهِ يــاتِـــي

أَنَا الظَّلُومُ: بصيغة فَعُول مبالغةً في الفعل [39]، كغاشم وغَشُوم، وعليه فـ«ظلوم» أي شديد الظلم لنفسي، **والظلم**: **وضع الشيء في غير موضعه** [40]، وعكسه العدل والإنصاف.

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(أَنَا الظَّلُومُ لنَفْسي)**: أي أنا الذي أضع الشيء في غير محلّه، فأتركُ الذي ينبغي، وأفعلُ الذي لا ينبغي.

والظلم نوعان:

- **أولهما**: ظلم في حق النفس، وهو قسمان:
  - **الأول**: وهو أعظمها، ظلم العبد نفسه بالشرك. [41]
  - **والثاني**: ظلم العبد نفسه بالمعاصي وسائر الذنوب.

39- قال ابن مالك في «الألفية»:

فَعَّـــــــالٌ او مِفْعَـــــــالٌ او فَعُـــــــولُ   في كَثْـــــرَةٍ عَـــــنْ فاعِـــــلٍ بَـــــديلُ
فيَســـــتَحِقُّ مـــــا لَــــهُ مِــــنْ عَمَـــــلِ   وفي فَعِيــــــــلٍ قَــــــلَّ ذا وفَعِـــــــلِ

وانظر «شرح ابن عقيل للألفية» (3/ 111).

40- «المصباح المنير» (ص 206).

41- انظر «معركة التوحيد والشرك» (فصل: الشرك، أعظم أنواع الظلم)، للمؤلف غفر الله له.

- **وثانيها:** ظلم في حق الناس، بالتعدي عليهم وغمطهم حقوقهم.

وفي الحديث، قال النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**الظُّلْمُ ثَلاثَةٌ، فَظُلْمٌ لا يَغْفِرُهُ الله، وَظُلْمٌ يَغْفِرُهُ، وَظُلْمٌ لا يَتْرُكُهُ، فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لا يَغْفِرُهُ اللهُ فَالشِّرْكُ، قَالَ الله:** ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]، **وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يَغْفِرُهُ اللهُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ لأَنْفُسِهِمْ، فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لا يَتْرُكُهُ الله فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، حَتَّى يَدِينَ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ**».[42]

قال ابن تيمية [43]: «ولهذا، جميعُ الذنوب يكون الرجلُ فيها ظالمًا لنفسِه، والظلمُ خِلاف العدل، فلم يَعِدل على نفسه، بل ظلمها، فصلاحُ القلب في العدل، وفسادُه في الظلم، **وإذا ظلم العبدُ نفسَه فهو الظالم وهو المظلوم، كذلك إذا عدَل فهو العادل والمَعدول عليه، فمنه العمل وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر**، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ». انتهى

والظلم بأنواعه مُكَدِّرٌ للتوحيد ومُنَغِّصٌ له، إذ لا يكون العبدُ مُحققا للتوحيد حتى يُصَفِّيَه من:

- الشرك،
- والبدع،

42- رواه البزار (6493)، والطيالسي (2223)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (3961)، و«الصحيحة» (1927).

43- «الفتاوى» (10/ 99).

- وسائر الذنوب والمعاصي.

وهذه الثلاثة: هي العوائق التي تَعوقُ القلبَ في سيره إلى الله، وتَقطعُ عليه الطريق، وزَوالُها يكون: [44]

- بتجريد التوحيد،
- وتحقيق السنة،
- وتصحيح التوبة.

44- انظر «الفوائد» (ص 188)، لابن القيم.

الحذر من كمائن النفس الأمارة بالسوء

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(وهيَ ظَالِمَتِي)**: أي أن نفسي الأمارةَ بالسوء ظالمَةٌ لي، **لأنَّ النفوسَ بالشهوات آمِرَة، وعن الرُّشد زاجِرَة**[45]، ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]، لأنَّ العبدَ يظلمُ نفسَه إذا تابعها في هواها، واسترسل في رضاها، ولم يكبِح لها جِماحا، ولم يغمِد لها سلاحا، فلم يهيئ لها أسباب الطاعات، ولم يغلق عليها منافذ الشهوات والشبهات، فهذا هو ظُلمه إياها، ومُسالَمَته لهواها، فظلَمَته كما ظلَمَها، وأوبَقتهُ كما ضيَّعها.

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**العاجِزُ من عجَزَ عن سِياسة نفسِه**»، وقال بعض الحكماء: «**من ساسَ نفسَه سادَ ناسَه**». [46]

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [47]: «**فإذا عَرف من نفسِه ما تُجِنُّ، وتصوَّر منها ما تُكِنُّ، ولم يُطاوِعها فيما تُحب إذا كان غَيًّا، ولا صرف عنها ما تَكره إذا كان رُشدا**، فقد مَلكها بعد أن كان في مِلكها، وغَلبها بعد أن كان في غَلَبتها». انتهى

45- «أدب الدنيا والدين» (ص 369) للماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

46- نفس المصدر (ص 370).

47- نفس المصدر (ص 371).

من حفظ الله في الصِّغَر حفظه الله في الكِبَر

والنفس كالبدن إذا لم تَرْعَهُ خار، وضَعُفَت قوَّتُه وانهار، حتى إذا احتجت إليه خانَك، ولو صُنتَهُ لصانَك، ومن وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قولُه: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ**»[48]، ومن ذلك أن يحفظَك اللهُ في حال كبرك وضَعفِ قواك، لحفظك لحقوقه وحدودِه أيام صِباك، فيُمتعَك بالقوة والعقل والسمع والبصر، كما متَّعك بها حال الشباب والصِّغَر.

واعتبر ذلك بحال أفضل الناس وهم الأنبياء عليهم السلام، فقد قال تعالى في حقِّ يوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] ، وقال عن ذي النون عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ -١٤٤]، ولكنه كان من الذاكرين الله قبل البلاء، فذكره الله في حال البلاء، فأنقذه ونجَّاه.[49]

ولنا في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ **خيرُ قُدوة وأعظَم أُسوة**، لما قالت له زوجُه خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أولَ ما نَزَل به الوحي -وكان قد خَشِيَ على نفسِه-: «**كَلَّا، وَاللهِ لَا**

48- رواه أحمد (2763)، والترمذي (2516)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (5302).

49- «تفسير الطبري» (21/ 108). وقال سلمان الفارسي: «**إذا كان الرجلُ دَعَّاءً في السرَّاء، فنزلت به ضرَّاءُ، فدعا الله تعالى، قالت الملائكة: صوتٌ معروف فشفعوا له، وإذا كان ليس بدَعَّاءٍ في السَّرَّاء، فنَزلت به ضرَّاءُ، فدعا الله تعالى قالت الملائكة: صوتٌ ليس بمعروف، فلا يشفعون له**». انظر «جامع العلوم والحكم» (ص 300)، و«الزهد» (1/ 313) لابن أبي عاصم.

يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا»[50]، ثم ذكرت مِن صفاتِه وأخلاقِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسابِقَته في الفَضل والبِر وما عليه من جميل الحال، ما استدَلَّت به -بكمال عقلها وسلامة فطرتها- على حُسن العاقبة والمآل، فإنَّ الأخلاقَ الفاضلةَ والشِّيَمَ الشريفةَ تُناسِب أشكالَها مِن كرامة الله وتأييده وإحسانه، ولا تُناسِب الخِزيَ والخِذلان، فمَن ركَّبه اللهُ على أحسن الصفات، وأحسن الأخلاق والأعمال إنما يليق به كرامتُه وإتمامُ نعمتِه عليه، ومَن ركَّبه على أقبح الصفات وأسوأ الأخلاق والأعمال إنما يليق به ما يُناسبها. [51]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ [52]: «فإنه قد عُرِفَ مِن سنة الله في عِباده وإكرامِه لأهل الخير، وإهانتِه لأهل الشر، ما فيه عِبرةٌ لأولى الأبصار...». انتهى

وكان أبو الطيب الطبري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ قد جاوز المائة سنة وهو مُمَتَّعٌ بعقله وقوته، فوَثَب يومًا مِن سفينة كان فيها إلى الأرض وَثبَةً شديدةً، فعُوتِب على ذلك، فقال: «**هذه جوارحُ حفِظناها عن المعاصي في الصِّغر، فحفِظها اللهُ علينا في الكِبَر**». [53]

وعلى العكس من هذا، فمن لم يصن أركانه في الصغر، ضيَّعه اللهُ في الكبر، ولهذا لما رأى الجُنَيدُ شيخًا يسألُ الناسَ، قال: «**إن هذا ضيَّع اللهَ في صِغَره، فضَيَّعه اللهُ في كِبَره**». [54]

50- رواه البخاري (4953)، ومسلم (160).

51- انظر «زاد المعاد» (3/ 17). قال الشيخ ابن باز في «تعليقه على زاد المعاد»: «**يعني من كان فيه هذه الصفات لا يُخزى، بل يُوفقُ ويُعان، سنةَ الله في عباده**». انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

52- انظر «الصفدية» (1/ 225، وما بعدها).

53- انظر «صفة الصفوة» (1/ 560)، لابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وفي هذا يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [55]: «**وقد يُهانُ الشيخُ في كِبَرِه حتى تَرحمَه القلوب، ولا يَدري أن ذلك لإهمالِه حقَّ اللهِ تعالى في شبابه!** فمتى رأيت معاقبًا، فاعلم أنه لذنوبٍ». انتهى

فمن ظلم نفسَه ظلمته، ومن عقَّها أهانته، ولهذا ينبغي للمسلم ألا يترك نفسَهُ غارقَةً في بحر الهَوى والشهوات، تائهَةً في أمواجِ الباطل والشبهات.

قال عَوْنُ بنُ عبد الله: «**إذا عصتك نفسُك فيما كَرِهَتْ، فلا تطِعها فيما أَحَبَّتْ**»، وقال بعضُ البُلَغاء: «**من قَوِيَ على نَفْسِهِ تَناهَى في القُوَّة، ومن صَبرَ عن شهوتِه بالَغَ في المُرُوَّة**».[56]

قال الشاعر: [57]

لَمْ أَرْضَ عَـنْ نَفْسـي مَخَافَـةَ سُـخْطِهَا ... وَرِضَـا الفَتـى عَـنْ نَفْسِـهِ إغْضَـابُهَا
وَلَـوْ أَنَّنـي عَنْهَـا رَضِـيتُ لَقَصَّـرَتْ ... عَـمَّا تَزِيـدُ بِمِثْلِـهِ آدَابُهَـا

=

54- «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس» ضمن «مجموع رسائل ابن رجب» (2/ 20)، و«جامع العلوم والحكم» (ص 294) له أيضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

علَّق شيخنا عبد الله العنقري -حفظه الله- **على هذا الأثر بقوله: «ليست على إطلاقها، فقد يَبتلي الله عبده بالشدة دون أن يقع منه تضييع، ولا يخفاك ما في بعض عبارات الصوفية من المخالفة**، مع أن ثبوت مثل هذا عن الجنيد مما يعسر الوصول إليه؛ لما علمت من عدم عنايتهم بضبط الأسانيد».

55- «صيد الخاطر» (ص 11).

56- «أدب الدنيا والدين» (ص 372).

57- نفس المصدر (ص 371).

وَتَبَيَّنَـــــتْ آثَــــارَ ذَاكَ فَــــأَكْثَرَتْ   عَـــذْلِي عَلَيْــهِ فَطَــالَ فِيـــهِ عِتَابُهَـــا

قال ابن القيم [58]: «لا يُكرِمُ العَبدُ نفسَه بمثل إهانتِها، ولا يُعِزُّها بمثل ذُلِّها، ولا يُريحُها بمثل تَعبِها، كما قيل:

ســأُتعِبُ نفســـي أو أُصــادِفَ راحَــةً   فــإنَّ هَــوانَ الــنَّفسِ فــي كَـرَمِ الـنَّفسِ

ولا يُشبِعُها بمثل جُوعِها، ولا يؤَمِّنُها بمثل خَوفِها، ولا يؤَنِّسُها بمثل وَحشَتِها مِن كل ما سوى فاطِرِها وبارِئِها، ولا يُحْيِيها بمثل إماتَتِها، كما قيل:

مــــوتُ النُّفـــــوسِ حَياتُهـــــا   مَـــــن شـــاءَ أَنْ يَحيَـــا يَمُـــوتُ

شرابُ الهوى حُلْوٌ، ولكنه يُورِث الشَّرَق...». إلخ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولهذا لما قيل لبعض العُبَّاد: إلى كم تتعب نفسك؟ فقال: **راحتَها أريد!** [59]

وعن الشعبي قال: غُشِيَ على مَسْرُوق في يوم صائف وهو صائم، فقالت له ابنته: «أفطر»، قال: «ما أردت بي؟»، قالت: «الرفق». قال: «**يا بُنيَّة، إنما أَطلُبُ الرِّفْقَ لنَفسي في يومٍ كان مِقدارُه خمسينَ ألفَ سنة**». [60]

وهذا كلُّه يحتاج مُجاهدةً ورياضَةً للنفس، **وقد أجمعَ العُقلاء على أنَّ النَّعيمَ لا يُدرَكُ بالنَّعِيم، وأنَّ مَن رافَق الراحةَ فارَق الراحة، وحَصَل على المَشَقَّة وقت الراحة في دار الراحة.** [61]

58- «الفوائد» (ص 85).

59- نفس المصدر (ص 54).

60- «صفة الصفوة» (2/ 16).

61- «مدارج السالكين» (1/ 518).

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فــاتعَبْ لِيَــومِ مَعَــادِكَ الأَدْنَــى تَــجِدْ رَاحَــاتِــهِ يَــومَ المَــعَــادِ الثَّــانِــي

ورياضةُ النفوس من أصعبِ ما يكون على المرء، حتى قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [62]: «**واعلم أن رياضةَ الأنفس أصعبُ من رياضة الأُسْد،** لأن الأُسْدَ إذا سُجِنت في البيوت التي يتخذ لها الملوك، أُمِنَ شرُّها، والنفسُ إن سُجِنت لم يُؤمَن شرُّها». انتهى

وتأمل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، مُكابِدا مضايقَ الدنيا وشدائدَ الآخرة، لأنَّ الكَبَدَ هو التَّعَبُ والشِّدَّةُ.

62- «مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق» (ص 53).

ولنعُد لشرح أبيات شيخ الإسلام، وقد وقفنا عند قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أنــا الظَّلُــومُ لنفْسي وهِيَ ظالِمَتي   والخَيرُ إنْ يَأتِنـا مِـنْ عنـدِهِ ياتِـي

أي أنَّ الخَيرَ إنما يأتي من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بتوفيقه ومَنِّه وفَضله، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] ، وقال حول نعمة الهداية والإيمان: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال سبحانه حول بعثة نبيِّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ... والآيات في امتنان الله على خلقه بالخير كثيرة.

مشاهدة منَّة الله في كل الأحوال

قال شيخ الإسلام الهَروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [63]: «**العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المِنَّة ومُطالَعة عَيب النفس والعمل**»، وقد جمَع بينهما النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في حديث «سيد الاستغفار»، فقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**» [64]، فيُقِرُّ العبدُ بنعمة الله عليه في الحسنات، ويعلم أنه هو هداه ويسره لليسرى، ويقر بذنوبه من السيئات ويتوب منها، كما قال بعضهم: «**أَطَعْتُك بِفَضْلِك وَالْمِنَّةُ لَك، وَعَصَيْتُك**

63- نقله عنه ابن القيم في «مدارج السالكين» (1/ 164)، في «الوابل الصيب» (ص 5)، وفي مواضع أخرى.

64- رواه البخاري (6306).

بِعِلْمِك وَالْحُجَّةُ لَك، فَأَسْأَلُك بِوُجُوبِ حُجَّتِك عَلَيَّ وَانْقِطَاعِ حُجَّتِي إلَّا غَفَرْتَ لِي».[65]

ومشاهدةُ المِنَّة توجِب للعَبدِ المحبةَ والحمدَ والشكرَ لوَليِّ النِّعَم والإحسان، ومُطالعةُ عَيبِ النفسِ والعملِ **توجِب له الذُّلَّ والانكسارَ والافتقارَ والتوبةَ في كل وقت**، وأن لا يرى نَفسَه إلا مُفْلِساً، وأقربُ بابٍ دخل منه العبدُ على الله تعالى هو الإفْلاسُ، فلا يرى لنفسِه حالاً ولا مَقاماً ولا سبباً يَتعلَّقُ به، ولا وسيلةً منه يمن بها، بل يدخُل على الله تعالى من باب الافتقار الصِّرف، والإفْلاسِ المَحْض، دُخولَ من كَسَر الفقرُ والمَسكنةُ قلبَه حتى وصلَت تلك الكَسرةُ إلى سُوَيدائه فانصدَع، وشَمِلَته الكَسرة من كل جِهاتِه، وشَهِد ضَرورتَه إلى ربه ﷻ، وكمالَ فاقتِه وفَقرِه إليه، وأنَّ في كُل ذَرَّةٍ من ذَرَّاتِه الظاهرة والباطنة فَاقةً تامةً، وضَرورةً كاملةً إلى ربه تبارك وتعالى، وأنه إنْ تخلَّى عنه طَرفَة عَينٍ هَلَك وخَسِر خَسارةً لا تُجبَر، إلا أن يَعود الله تعالى عليه ويتداركَه برحمته.[66]

وقد ذكر ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ **الذي يمنعُ العاقلَ أن يرى لنفسه عملًا، أو يُعجَبَ به، أشياء: منها** [67]:

- أنه وفق لذلك العمل: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾[الحجرات: ٧]،

65- «الفتاوى» (11/ 30).

66- «الوابل الصيب» (ص 5، بتصرف)، وعدة مواضع أخرى من كتب ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

67- «صيد الخاطر» (ص 284). وانظر «مدارج السالكين» (1/ 462)، لما تكلم ابن القيم عن آفات «منزلة الإخلاص».

- **ومنها**: أنه إذا قيس بالنعم، لم يَـفِ بمِعشار عشرها،
- **ومنها**: أنه إذا لوحظت عظمة المخدوم، احتقر كل عمل وتعبد، هذا إذا سلم من شائبة، وخلص من غفلة. فأما والغفلات تحيط به؛ فينبغي أن يغلب الحذر من رده، ويخاف العتاب على التقصير فيه، فيشتغل عن النظر إليه.

النفع والضر بيد الله وحده

ثم قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لا أسْــتطيعُ لِنَفْســي جَلْــبَ مَنْفَعَـــــةٍ   ولا عَنِ النّــفْسِ لـي دَفْــعُ المَضَــرّاتِ

فإنَّ العبدَ لا يملِكُ جلبَ النفعِ لنفسِه ولا دفعَ الضُّر عنها، فإنَّ الكل بيد الله جل في عُلاه، وتقدَّس في عالي سماه، وقد دل على تفرد الله بالمنع والعطاء آيات كثيرة من كتاب الله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]، وقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]... [68]

68- ومن الأمثال المشهورة والمُنكَرة عندنا في «تونس»، قول العامة: «هذا رجل لا يَرحم، ولا يترك رحمةَ ربي تنزل!؟»، وهذا من أعظم الباطل، فإن رحمة الله لا مُمسِكَ لها، يُنزلها سبحانه متى شاء كيف شاء وعلى من شاء.

ولو كانت العبارة هكذا: «هذا رجل لا يَرحم، ولا يُحب رحمةَ ربي تنزل» لكانت سليمة، فإن الحسود لا يحب الخير للناس!

=

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ [69]: «المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا هُدًى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل، بل ربه هو الذي خلقه ورزقه، وبصَّره وهداه، وأسبَغ عليه نِعمه، فإذا مسه الله بضُر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنِعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبدُ فلا ينفعُه ولا يضرُّه إلا بإذن الله». انتهى

قال بعضهم: [70]

مَـــا قَـــدَّرَ اللهُ لي لابُـــدَّ يُـــدْرِكُنِي مَـــن ذا الَّـــذِي يَـــدفَعُ المَقْـــدورَ بالحَـــذَرِ
اللهُ أَوْلى بِنَـــــا مِنَّـــــا بأَنْفُسِـــــنا إنْ نحـــــنُ إلا مَماليـــــكٌ لـــــمُقْتَدِرِ

وفي الدعاء المعروف: «**اللَّهُمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ**» [71]، وفي وصية النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قولُه: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ**

=

وقد يُراد بهذا المثل ذمُّ هذا الرجل الذي بسبب كثرةِ ذنوبه وسوءِ حاله دُفِع أو رُفِع عن الناس الرزق والمطر وغير ذلك... وكل هذه الأشياء راجعة إلى رحمة الله تعالى. فيكون قصدهم: هذا الرجل شؤم على نفسه وعلى غيره، والعياذ بالله!!

وانظر كتاب «رحمة الرحمن الرحيم» لحمد العثمان (ص 140).

وقد بدأت -بفضل الله- جمع شيء من «الأمثال التونسية التي خالفت الشرع»، مع التعليق عليها، وبيان سُبل تصحيحها -إن أمكن ذلك-، فإن العبد مُحاسَب على ما يقول، وكم من كلمة خرجت من اللسان هلك بها إنسان، حتى ذكر الماوردي في «أدب الدنيا والدين ص 445» أن من آداب الكلام: «**أن يجتنب أمثال العامة والغوغاء، ويتخصص بأمثال العلماء والأدباء...**» إلى آخر كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

69- انظر «مجموع الفتاوى» (1/ 27).

70- «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لابن عباس»، الرسائل (2/ 72).

عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّت الصُّحُفُ» (72).

قال الشاعر: (73)

دَبِّرْ فلَيسَ بمُغْنِ عَنكَ تَدبيرُ ... ولَيسَ يَعْدُوكَ بالتَّدبيرِ تَقدِيرُ
إنَّ الأُمُورَ لَها رَبٌّ يُدَبِّرُها ... فَما قَضى الرَّبُّ ساقَتْهُ المَقادِيرُ

ومعرفة العبد واستيقانُه بهذا الأصل وهو أن الله هو المانع المعطي، والنافع الضار، يوجب له توحيد الله وإفراده بالاستعانة والتضرع والعبادة، ولهذا ذم الله من يعبد ما لا ينفع ولا يضر ولا يغني عن عابده شيئا (74)، ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦]، واحتجَّ بهذا إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على أبيه لما قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٤٢]...

=

71- رواه البخاري (844)، ومسلم (471).

72- تقدم تخريجه.

73- «نور الاقتباس»، الرسائل (2/ 72).

74- انظر نفس المصدر (2/ 69).

وَلاية الله لعبده: عامة وخاصة

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعدها:

ولـــيْسَ لـي دُونَـهُ مَـوْلىً يُدَبِّـرُنـِــي ... ولا شَـفيعٌ إذا حاطَـتْ خَطِيئـــاتِـــي

إلا بـإذْنٍ مِـنَ الـرّحْمنِ خالِقِنـَـــا ... إلى الشَّـفيعِ كَمـا قـدْ جـا في الايـــاتِ

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ولـيْسَ لي دُونَهُ مَوْلىً يُدَبِّـرُنـي**): أي ليس للعبد مولى يُدَبر أمرَه سوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن أسماء الله تعالى «**المَوْلَى**» الذي يتولَّى عباده، **وهذه الولاية تنقسم إلى**: [75]

- ولايةٍ من العبد لله، كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [المائدة: ٥٦].
- وولايةٍ من الله للعبد، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧]، **وهي قسمان**: عامة، وخاصة.

فالولاية العامة: هي الولاية على العباد بالملك والتدبير والتصريف، **وهذه تشمل المؤمن والكافر وجميعَ الخلق**، فالله هو الذي يتولى عباده بالتدبير والتصريف والسلطان وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴾[الأنعام: ٦٢].

75- انظر «شرح النونية» (2/ 669) للهراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، و«دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» (ص 65)، للشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، و«القول المفيد» (2/ 11، 66)، لابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، و«النهج الأسمى» (2/ 46)، لحمود النجدي وفقه الله...

والولاية الخاصة: أن يتولى الله العبد بعنايته وتوفيقه وهدايته ونَصره وتأييده، **وهذه خاصة بالمؤمنين**، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣]، وقال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠]، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، ولما قال أبو سُفيان بعد «معركة أُحُد»: «لَنَا العُزَّى وَلاَ عُزَّى لَكُمْ»، أَمر النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الصحابَة أن يُجيبوه بقولهم: «**اللهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ**»[76]، والمقصود هنا الولاية الخاصة، وهي أغلب ما يُطلق في نصوص الوحيين.

وقولُه رَحِمَهُٱللَّهُ: (**وَلَيْسَ لِي دُونَهُ مَوْلًى يُدَبِّرُنِي**): يُحمَل -والله أعلم- على الولاية العامة والخاصة، إذ يدخُل فيه الخَلق والتدبير والإحاطة، وهذا من الولاية العامة، وكذلك النصر والإعانة والتوفيق، وهذا من الولاية الخاصة.

76- رواه البخاري (3039).

مباحث حول الشفاعة وشروطها

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

.... **ولا شَـفيعٌ إذا حاطَـتْ خَطِيئـــاتِــي**

إلى الشَّـفيعِ كَمـا قـدْ جـا في الايـــاتِ **إلا بـــإذنٍ مِـــنَ الـــرّحْمنِ خالِقِنـــا**

وفي هذين البيتين، نفى شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ الشفاعةَ نفيًا عاما بقوله: (**ولا شَفيعٌ إذا حاطَتْ خَطِيئاتِي**).

ومعنى (**شَفيع**): اسم فاعل من الشفاعة، وهو المتوسِّطُ عند الله لجلب خير أو دفع ضر.[77]

ومعنى (**إذا حاطَتْ خَطِيئاتِي**): أي اجتمعت علي وأثقلتني أوزارها، فإنَّ إحاطة الذنوب هي الموت عليها قبل الإنابة والتوبة منها، قال تعالى: ﴿**بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ**﴾ [البقرة: ٨١].[78]

ثم أَثبت رَحِمَهُ ٱللَّهُ الشفاعةَ بشرطها في قوله: (**إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرّحْمنِ**)، و«**الرحمن**»: اسم من أسماء الله تعالى التي لا يُسَمَّى بها غيرُه سبحانه، ومعناه: ذو الرحمة الواسعة. **والرحمة**: اسم جامع لكل خير، كما أنَّ العذاب اسم جامع لكل شر.[79]

77- انظر في موضوع الشفاعة: «شرح القواعد الأربع»، «والتعليق على نظم المهمات من كشف الشبهات»، و«الشفاعة: أنواعُها وشُروطُها»، «نهج الاقتصاد شرح حائية الاعتقاد»، وجميعها للمؤلف غفر الله له.

78- انظر «تفسير الطبري» (2/ 284).

79- انظر «مجموع الفتاوى» (10/ 62).

وقوله: (**إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرَّحْمنِ**): استثناءٌ من قوله (**ولا شَفيعٌ**)، والاستثناء: وهو عبارة عن إخراج ما لولاه لدخل في الكلام، ويكون بـ(إلا) ونحوها.

وقد جاءت النصوص بنفي الشفاعة تارة، كقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وجاءت بإثباتها تارة أخرى، كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]...

وعليه، فالشفاعة نوعان: [80]

- **شفاعةٌ مَنفِيَّة،** لم تتحقق شروطُها، كالتي أثبتها المشركون ومن ضاهاهم من جهال هذه الأمة وضُلَّالها، وهي من الشرك.
- **وشفاعةٌ مُثبَتة،** تحققت شروطها، كالتي أثبتها الله تعالى لعباده الصالحين.

وشروط الشفاعة، هي:

- **الرضا عن الشافع،** فإنَّ تمكينَ الشافع من الشفاعة تكريم له وتشريف، والله لا يُكرم إلا من رضي قولَه وعملَه.
- **والرضا عن المشفوع له،** لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[الأنبياء: ٢٨]، وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ

80- انظر «مجموع الفتاوى» (1/ 332)، ومواضع أخرى كثيرة، بسط فيها ابن تيمية هذا الباب فجاء بالحق والهدى رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦]، وأعظم الأسباب التي تنال بها الشفاعة هو تجريد التوحيد، ففي «الصحيح»[81] أنَّ النبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ «لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**».[82]

- **والإذن بالشفاعة**، لقوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾[سبأ: ٢٣]، وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٣].

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ [83]: «**فهذه ثلاثة أصول، تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها**، لا شفاعة إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيده، واتباع رسوله، فالله تعالى لا يغفر شرك العادلين به غيره، كما قال تعالى ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١] ». انتهى

81- البخاري (99).

82- قال العلامة مبارك الميلي في «رسالة الشرك ومظاهره» (ص 331): «أيها الراجي لنيل الشفاعة–حقّق اللهُ رجاءك–! **لا تجعل الرجاء وحده طريقتك إليها، ولا عمدتك لاستحقاقها، فتكون من المغترين، ولحال المشركين من المشبهين، ولكن اعمد إلى قلبك؛ فاعمره بالإيمان الخالص من نزعات الوثنية ونزغات إبليس...**». انتهى

83- «مدارج السالكين» (1/ 256)، و«الصواعق المرسلة» (2/ 461).

والعبدُ إذا أحاطت به خطاياه مِن كل جانب فلن يُنْجِيَه إلا ربُّه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ومن أسباب النجاة يوم القيامة: الشفاعة، وهي مما اتفق عليه الصحابة والتابعون خلافا للوعيدية من المعتزلة والخوارج، ومن شروطها الإذن، ولهذا قال: (**إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرَّحْمَنِ خَالِقِنَا**)، وهذا الإذن يكون (**إلى الشَّفيعِ**)، الذي رَضي اللهُ قولَه وفِعله من صالحي عباد الله، وبَسطُ الكلام في الشفاعات وأنواعها والرد على منكريها ومن غلا فيها في غير هذا الموضع.

وفي قول شيخ الإسلام: (**إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرَّحْمَنِ**): إشارة لطيفة إلى سعة رحمة الله جل وعلا، **فإنَّ إذنَه** سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ **بالشفاعة فيه:**

- **رحمةٌ بالمشفوع له**، إذ بالشفاعة تُغفر السيئات، وتُرفع الدرجات.
- **ورحمةٌ بالشفيع**، الذي أكرمه الله بالشفاعة إظهارًا لفضله، وإعلاءً لمنزلته بين العالمين.

وفي قوله: (**خَالِقِنَا**): إشارَة إلى أنَّ اللهَ الذي خلق كُلَّ شيء، لا يجبَ أن يَتقدَّمَ أحد من خلقه بين يديه إلا بإذنه سُبحانه، لذلك جُعل الإذن بالشفاعة خلافا لما كان يعتقده المشركون في آلهتهم، التي كانوا يرجون شفاعتها في الدنيا، وقد أبطل الله ذلك في قوله: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [الزمر: ٤٣ – ٤٤]، وقال صاحب «يسٓ»: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ

مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ [يس: ٢٢ – ٢٥].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ [84]: «**وهذا كله يُبين أن الأمرَ كلَّه لله، هو الذي يُكرِم الشفيعَ بالإذن له في الشفاعة، والشفيعُ لا يشفع إلا فيمن يأذن اللهُ له**، ثم يُحِدُّ للشفيع حَدا فيدخلهم الجنة، فالأمرُ بمشيئته وقُدرته واختياره.

وأَوجَهُ الشفعاء وأفضلُهم هو عنده الذي فضَّله على غيره واختاره واصطفاه بكمال عبوديته وطاعته وإنابته وموافقته لربه فيما يحبه ويرضاه». انتهى

وقول شيخ الإسلام: (**كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْايَاتِ**)، بالتخفيف للضرورة الشعرية، والمقصود أنَّ الإذنَ بالشفاعة جاء في العديد من الآيات القرآنية، قد مر بعضُها عند الكلام على شروط الشفاعة.

84- انظر «مجموع الفتاوى» (1/ 295)، و«رسالة الشرك ومظاهره» (ص 317) لمبارك الميلي.

استغناء الله عن الخلق، وافتقارهم إلى فضله

بعد الكلام على الشفاعة، وأنها لا تقع إلا بإذن من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قال الناظم رَحِمَهُٱللَّهُ:

ولسْتُ أَمْلِكُ شيئاً دُونَهُ أبَداً ... ولا شَريكٌ أنا في بَعْضِ ذَرَّاتِي

ولا ظَهيرٌ لَهُ كَيْ يَسْتَعينَ بِهِ ... كما يكونُ لأرْبابِ الوِلاياتِ

وهذان البيتان اشتملا على أمور عظيمة، ففي قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (**ولسْتُ أَمْلِكُ شيئاً دُونَهُ أبداً**): أنَّ العبدَ لا يملك من دون الله جل وعلا شيئا، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١ – ٢٢]، فالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ -على علو مكانته عند ربه- لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، فالعبد لا يملك شيئا من دون الله جل وعلا، إنما هو محض تفضل منه سبحانه، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة: ١٢٠].

وكلمة (**شيئاً**) في قوله: (**ولسْتُ أَمْلِكُ شيئاً دُونَهُ**) نكرة في سياق النفي فتفيد العموم، أي تعُمُّ أيَّ شيء ولو كان ذرَّةً.

وفي قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا شَريكٌ أنـا في بَعْضِ ذَرَّاتِ)**: أنَّ العبدَ ليس شريكا لله في شيء البتَّة، ولو في بعض الذرات.

والذَّرُّ عند العرب صِغار النَّمل[85]، وهو أصغر ما يمثل به العرب حجما، والمقصود -هنا- أنَّ العبدَ لا يملك شيئًا، ولا يشارك اللهَ سبحانه في ملك شيء، فالكل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨].

فالملك مع الله مُتَعذر استقلالا، ولا على سبيل الشركة، ولا يمكن أن يُعينَ اللهَ تعالى أحدٌ في مُلكه، ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا ظَهيرٌ لَـهُ كَيْ يَسْـتَعينَ به)**، والظهير هو المُعين والوزير، وقوله: **(كَيْ يَسْـتَعينَ به)**، أي ليطلبَ منه العَون، فاللهُ هو المتفرد بالربوبية والألوهية، وله الأسماء الحسنى والصفات العلى، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، فهو الصمد الذي تَصمُد إليه الخلائق في حوائجها، وهو الغني الذي استغنى عن مخلوقاتِه، وبهرت عظمتُه من تأمل آياتِه، فالكل إليه فقير، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

85- «القاموس المحيط» (ص 396) للفيروزآبادى، وانظر «تفسير القرطبي» (5/ 195).

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «التحرير والتنوير» (11/ 214): «والذرة: النملة الصغيرة، ويطلق على الهباءة التي ترى في ضوء الشمس كغبار دقيق جدا... وذكرت الذرة مبالغة في الصغر والدقة». انتهى

وفي قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولسْتُ أَمْلِكُ شيئاً دُونَهُ أبَداً ولا شَرِيكٌ أنا في بَعْضِ ذَرَّاتِي
ولا ظَهِيرٌ لَهُ كَيْ يَسْتَعِينَ بِهِ ....

إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ: ٢٢]، فقد تَهدَّد سبحانه مَن دعا شيئا مِن دون الله، وبيَّن أنهم لا ملك لهم مع الله، ولا شركا في ملكه، وأنه ليس له عَون ولا ظهير من المخلوقين، فقطع تعلُّقَ القلوب بالمخلوقات: رغبةً ورهبةً وعبادةً واستعانةً، ولم يبق إلا الشفاعةُ وهي حق، فبيَّن سبحانه أنها لا تكون إلا بإذنه، فقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].[86]

فتأمل هذه الآية -نوَّر اللهُ بصيرتك بالتوحيد-، وكيف حسمت مادة الإشراك والتنديد، فلم تُبقِ لأهله متمَسَّكا به يتمسكون، وبرهانا عليه يعتمدون، بل اقتلعت أصول الشرك من الجذور، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٦].

86- «مجموع الفتاوى» (1/ 294)، بتصرف.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[87]: «فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع، **والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع**:

إما مالك لما يريده عباده منه،

فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك،

فإن لم يكن شريكا له كان معينا له وظهيرا،

فإن لم يكن معينا ولا ظهيرا كان شفيعا عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيا مترتبا، متنقلا من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التي يظنها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نورا، وبرهانا ونجاة، وتجريدا للتوحيد، وقَطعا لأصول الشرك ومَوادِّه لمن عَقِلها، والقرآنُ مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكنَّ أكثرَ الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خَلَوْا من قبل ولم يُعَـقِّبوا وارثا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن». انتهى

87- «مدارج السالكين» (1/ 256)، و«الصواعق المرسلة» (2/ 461).

الرد على شبهة للمشركين في تسوية الخالق بالمخلوقين

ولنَعُدْ إلى قول الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولسْتُ أَمْلِكُ شيئاً دُونَهُ أبَداً ولا شَرِيكٌ أنا في بَعْضِ ذَرَّاتِي

ولا ظَهِيرٌ لَهُ كَيْ يَسْتَعِينَ بِهِ كما يكونُ لأرْبابِ الوِلاياتِ

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كَمَا يَكُونُ لِأَرْبَابِ الْوِلَايَاتِ)**: والوَلايةُ بالفتح هي المحبة والنُّصرة، والوِلايةُ: بالكَسر هي الإمارَة [88]، وجمعها: وِلايات، والمقصود بهم هنا أصحاب الجاه كالملوك والأمراء والرؤساء وغير ذلك، ممن شبَّه المُشركون اللهَ بهم، فشبهوا المخلوق بالخالق، وجعلوا لله أندادا، فجاؤوا ظلمًا وزُورا، وكانوا قوما بورا.

وإن مما أورد المشركين وأهلَ الباطل الموارد أنهم شبَّهوا الخالق بالمخلوق، فزعموا بجهلهم أنَّ الله لا يُفردُ بالعبادة إلا أن يُتقرَّب إليه بأوليائه، الذين لهم عند الله جاه، واستدلوا على ذلك –زورًا وتلبيسًا– بأن الملوك لا يُدخل عليهم مباشرة، إنما يُبَلَّغون حوائج الرعية عن طريقة الحاشية والوزراء، ولا يستجيبون إلا إذا شفع لديهم الشفعاء!!؟

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ [89]: «فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين، ويصورون تماثيلهم فيستشفعون بها ويقولون: هؤلاء خواص الله، **فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا، كما يتوسل إلى الملوك**

88- انظر «رسالة الشرك ومظاهره» (ص 168) لمبارك الميلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

89- «الفتاوى» (1/ 150).

بخواصهم لكونهم أقرب إلى الملوك من غيرهم، فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك، وقد يشفع أحدُهم عند الملك فيما لا يختاره فيحتاج إلى إجابة شفاعته رغبة ورهبة، فأنكر الله هذه الشفاعة...». انتهى

وقد ذكر اللهُ تعالى هذا عنهم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، قال قتادة والسدي وغيرهما: «أي ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة».

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ [90]: «وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، برَدِّها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأنَّ هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه». انتهى

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [91]: «ومن جهل المشرك اعتقادُه أن من اتخذه وَلِـيا أو شفيعا أنه يشفع له، وينفعه عند الله، كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم، ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله ...». انتهى

قلت: وهذا -لعَمري- في القياس شنيع، نقلا وعقلا وفِطرة، إذ كيف يُسَوِّي هؤلاء الجاهلون بين رب الأرباب الذي ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي

90- «التفسير» (7/ 63).

91- «مدارج السالكين» (1/ 255).

ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ ﴾ [سبأ: ٣]، والذي ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥]، وبين الذين لا يستطيعون أن ﴿يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣]؟!، ولكنَّ المشركين ما ﴿ قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقد بيَّن أهلُ العلم فسادَ هذا القياس، ودحضوا شُبَه الذين ساوَوا بين الملوك وبين رب الناس، **ومن ذلك: أنَّ الملوكَ إنّما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم:** [92]

لقصور علمهم، وضعف اطلاعهم، فهم محتاجون لمن يُعلِمهم بأحوالهم، ويخبرهم بحاجاتهم، والله سبحانه غني عن الخلق، يعلم السر وأخفى، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، يسمع ضجيجَ الأصوات باختلاف اللغات على تَفَنن الحاجات، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تُغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرَّم [93] بإلحاح الْمُلحِّين، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

- **وإما لعجزهم ونقص قدرتهم**، فلا يستطيعون القيام بحقوق الرعية إلا بأنصار وأعوان، والله سبحانه ليس له ظهير ولا ولي من الذل، ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ

92- جمعت هذه الفروق من كلام متفرق لأهل العلم. انظر «الفتاوى» (1/ 126، وما بعدها)، و«الصواعق المرسلة» (2/ 461) لابن القيم، و«تفسير ابن سعدي» (ص 844)، و«رسالة الشرك ومظاهره» (ص 334) للميلي، و«شرح النونية» (2/ 669) للهراس، و«القول المفيد» (1/ 188) لابن عثيمين... رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ جميعا.

93- أي: لا يَسأم ولا يَضجَر.

وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء: ١١١]، فكل ما سواه فقير إليه بذاته، وهو الغني بذاته عن كل ما سواه، سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

- **وإما لأنهم قد لا يكون في قلوبهم رحمةٌ لرعاياهم،** فيحتاجون من يُعطِفهم عليهم ويسترحمهم لهم، والله سبحانه هو رب كل شيء ومليكُه، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وكل الأشياء إنما تكون بمشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ويفعل ما يفعل حكمة ورحمة لا رغبة ولا رهبة، ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].
- **وإما لخوفهم من الشّفعاء والوزراء،** فيقضون حوائج من توسّطوا لهم مراعاةً لهم، ومُداراةً لخواطرهم، فهم يرغبون في إرضاء أعيان دولتهم، ويرهبون إسخاطهم، والله سبحانه لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين، وهو القائل: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٥ – ٦٦].
- **وهم أيضا فقراء، قد يمنعون لما يخشَوْن من الفقر،** ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِىُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، الذي له الغِنى المطلق الذي لا يتطرق إليه نقص بوجه من الوجوه،

سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[يونس: ٦٨].

قال العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [94]: «**فبهذه الفروق يُعلم جهلُ المشركين به، وسفَهُهم العظيمُ، وشدّة جَراءتهم عليه**، ويُعلم أيضا الحكمةُ في كَون الشّرك لا يَغفرُه اللهُ تعالى، لأنّه يتضمّن القَدح في الله تعالى». انتهى

لَخَّص العلامة ابن القيم الكلامَ عن الشفاعة وشروطِها مع الردِّ على من اتخذ الوسائطَ من دون الله في «النونية»، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فالشِّرْكُ تَعظيمٌ بجَهْلٍ مِن قِيَا ... سِ الــرَّبِّ بــالأُمَراءِ والسُّــلْطانِ
ظَنُّوا بأَنَّ البَابَ لا يُغْشَى بِدُو ... نِ تَوَسُّــطِ الشُّــفَعاءِ والأَعْــوانِ
ودَهَاهُمُ ذاكَ القِياسُ المُسْتَبِينُ ... فَســادُه بِبَداهَــةِ الإنســانِ
الفَرْقُ بَينَ الله والسُّلْطانِ مِنْ ... كُــلِّ الوُجــوهِ لمــن لــه أُذُنــانِ
إِنَّ الملوكَ لَعاجِزُونَ وما لَهُمْ ... عِلْــمٌ بــأَحوالِ الــدُّعَا بــأَذانِ
كَلاَّ ولا هُمْ قادِرونَ على الَّذي ... يَحتاجُــهُ الإنســانُ كُــلَّ زمــانِ
كَلاَّ وما تِلكَ الإرادَةُ فِيهُمُ ... لِقَضَــا حَــوائِجِ كُــلِّ مــا إنســانِ
كَلاَّ ولا وَسِعُوا الخَلِيقَةَ رَحمَةً ... مِــنْ كُــلِّ وَجْــهٍ هُــمْ أُولُــو النُّقصانِ
فلِذلِكَ احتاجُوا إلى تِلكَ الوَسَا ... ئِــطِ حَاجَــةً مِــنهُمْ مَــدَى الأزمــانِ
أَمَّا الذي هُوَ عالِمٌ للغَيْبِ مُقْـ ... ـتَدِرٌ عــلى مــا شــاءَ ذُو إحســانِ

94- «التفسير» (ص 844).

وتَخافُهُ الشُّفَعاءُ ليسَ يُريدُ مِنْـ ـــهُمْ حاجَـةً جَـلَّ العَظـيمُ الشَّـانِ
بَلْ كُلُّ حاجاتٍ لهُمْ فَإليهِ لا لسِـــواهُ مِـــن مَلَـــكٍ ولا إنســـانِ
ولَهُ الشَّفاعَةُ كُلُّها وهْوَ الذي في ذاكَ يَـــأذَنُ للشَّـــفِيعِ الـــدَّانِي
لِمَنْ ارتَضَى مِمَّنْ يُوَحِّدُهُ ولَمْ يُشْرِكْ بِهِ شـــيئًا لِـــمَا قَـــدْ جـــاءَ في القُـــرآنِ
سَبَقَتْ شَفاعَتُهُ إلَيهِ فَهْوَ مَشْـ ـــفُوعٌ إليـــهِ وشـــافِعٌ ذُو شَـــانِ
فَلِذا أَقامَ الشَّافِعِينَ كَرامَةً لَهُـــمُ ورَحْمَـــةَ صـــاحِبِ العِصْـــيَانِ

الافتقار لله وصف ذاتي للمخلوق

ثم قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والــفَقْرُ لــي وَصْــفُ ذاتٍ لازِمٌ أبَـداً كما الغِـنى أبَــداً وَصْـفٌ لَــهُ ذاتِــي

وهذا مِن أحسن الأبيات في هذه المنظومة، لـجمال لفظه، ومتانة معناه، إذ هو لُبُّ هذه القصيدة، وخُلاصة ما فيها من مَعانٍ سديدة، ولهذا كَـثُر الاستشهاد به مفرَدا في عدد من المؤلفات، وقد سبق بيانه في أول هذه التعليقات.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والفَقْرُ لي وَصْـفُ ذاتٍ**): أي أنَّ الافتقار لله نَعتٌ وصِفةٌ لا تَنفكُّ عن العبد بحال من الأحوال، بل هي مُلازِمَةٌ له أبدا، ولهذا قال: (**وَصْـفُ ذاتٍ لازِمٌ أَبَدًا**)، لأنه من لوازم العُبودية لله جَلَّجَلَالُهُ بل هو حقيقتها وقُطب رحاها، ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٥ –١٦]، وفي هذا إظهار لذُل وخُضوع العبودية، أمام عِزِّ وسُلطان الربوبية.

قال العلامة ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ [95]: «**إن العبادةَ هي غاية الذل والخضوع مع الشعور بغاية الضَّعف والافتقار**، ومن مقتضى الضَّعف أن يخاف ويوجل، ومن مقتضى الافتقار أن يرجو ويطمع». انتهى

95- «الآثار» (1/ 448). وانظر أيضا (1/ 219).

ولهذا قال شيخ الإسلام بعدها: (**كما الغِـنى أبـداً وَصْفٌ لَـهُ ذاتِـي**): أي أنَّ غِنى المولى سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وصفٌ ذاتي، كما أن افتقار خلقه إليه وصفٌ ذاتي، وقد قيل قديما: «**مَن عَرَف نفسَه عَرَف ربَّه**»[96].

قال ابن القيم[97]: «**وفيه ثلاثة تأويلات:**

أحدها: أن من عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة، ومن عرفها بالعجز عرف ربه بالقدرة، ... فإن الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق، والحمد والثناء، والمجد والغنى، والعبد فقير ناقص محتاج، وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله. [**وهذا من باب قياس العكس**]

96- قال ابن تيمية في «الفتاوى» (16/ 349): «وبعض الناس يروي هذا عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وليس هذا من كلام النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولا هو في شيء من كتب الحديث ولا يعرف له إسناد. ولكن يروى في بعض الكتب المتقدمة -إن صح- «**يا إنسان اعرف نفسك تعرف ربك**». وهذا الكلام سواء كان معناه صحيحا أو فاسدا لا يمكن الاحتجاج بلفظه فإنه لم يثبت عن قائل معصوم. لكن إن فسر بمعنى صحيح عرف صحة ذلك المعنى سواء دل عليه هذا اللفظ أو لم يدل. وإنما القول الثابت ما في القرآن وهو قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ ﴾ [الحشر: ١٩]، فهو يدل على أن نسيان الرب موجب لنسيان النفس، وحينئذ فمن ذكر الله ولم ينسه يكون ذاكرا لنفسه ...». وانظر كلام الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ عليه في «الضعيفة» (66)، فهو مفيد!

97- «مدارج السالكين» (1/ 318). وانظر: «الفتاوى» (9/ 297)، و«طريق الهجرتين» (ص 12)، و«الفوائد» (ص 170).

والتأويل الثاني: أن من نظر إلى نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة والإرادة والكلام والمشيئة والحياة، عرف أن من أعطاه ذلك وخلَقه فيه أولى به، فمعطي الكمال أحق بالكمال. [**وهذا من باب قياس الأولى**]

والتأويل الثالث: أن هذا من باب النفي، أي كما أنك لا تعرف نفسك التي هي أقرب الأشياء إليك، فلا تعرف حقيقتها، ولا ماهيتها ولا كيفيتها، فكيف تعرف ربك وكيفية صفاته؟ [**وهذا فيه قطع الطمع عن إدراك كُنه الخالق سبحانه**]».

قلت: ويمكن أن يَجمَع هذه التأويلات الثلاث قولُنا في ذكر الله: «**سبحان الله والحمد لله والله أكبر**»، فنُسبِّح اللهَ وننزهه ونُقدسه عن نقص المخلوقات، ونَحمدُه ونُثني عليه بإثبات المحامد والكمالات، ونُكبِّره ونُعظِّمه ونُنزه عن مُماثلة الكائنات، ونقطع بأن ذاته وأسماءه وصفاتِه لا تتصورها الخيالات ولا تُحيط بها الإدراكات... سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم!!

وقد جمع الله سبحانه بين فقر المخلوق وكمال غنى الخالق في عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]، وقوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، **فبيَّن سبحانه في هذه الآية أنَّ فقرَ العباد إليه أَمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، كما أَن كونه غنياً حميداً أمر ذاتي له**، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أَوجبه، وفقر مَن سواه إليه ثابت لذاته لا لأَمر أَوجبه...

فالفقير بذاته محتاج إلى الغَني بذاته... ويستحيل أن يكون العبد إلا فقيراً، ويستحيل أَن يكون الرب سبحانه إلا غنياً، كما أَنه يستحيل أَن يكون العبد إلا عبداً والرب إلا رباً. [98]

وفي حديث الاستسقاء، قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْغَنِيُّ وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْغَيْثَ...**» [99].

يقول حافظ حكمي رَحِمَهُٱللَّهُ في «سُلَّم الوُصول»[100]:

وهْوَ الْغَنِيُّ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ جَــــلَّ ثنَـــــاؤُهُ تعَـــــالَى شَـــــانُهُ
وكُلُّ شَيْءٍ رِزْقُهُ عليهِ وَكُلُّنَـــــــا مُفْتَقِـــــــرٌ إِلَيْـــــــهِ

فكما أنَّ جميعَ المخلوقات مُفتَقِرةٌ إليه تعالى في وجودها فلا وجودَ لها إلا به، فهي مُفتَقِرةٌ إليه في قِيامها فلا قَوامَ لها إلا به، فلا حركةَ ولا سُكونَ إلا بإذنه، فهو الحَيُّ القَيُّومُ القائمُ بنفسِه فلا يحتاجُ إلى شيء، القَيِّمُ لغيرِه فلا قَوامَ لشيء إلا به، **فللخالِق مُطلَقُ الغِنى وكمالُه، وللمَخلوق مُطلَقُ الفَقر إلى الله وكمالُه.** [101]

يقول شيخنا صالح بن عبد الله العصيمي: [102]

فَــــقْرُ القُــلُوبِ إِلَــى الإِلَــهِ ضَــرُورَةٌ يَــا وَيْـــــلَ قَلْــبٍ بَــاءَ بِـالحِـرْمَــــانِ

98- انظر «طريق الهجرتين» (ص 11).

99- رواه أبو داود (1173)، وحسَّنه الألباني في «إرواء الغليل» (668).

100- وقد يسَّر الله لي بمَنه مِن قريب شرح هذه المنظومة المباركة في أحد المساجد بمدينة «ليون» بفرنسا.

101- «معارج القبول بشرح سلم الوصول» (1/ 187)، للحكمي.

102- في مطلع منظومته «المعاني الحسان في نصح أهل الإيمان».

وقال أبو حَفْصٍ: **«أحسَنُ ما يَتوسَّلُ به العبدُ إلى الله: دوامُ الافتقارِ إليه على جميع الأحوال، ومُلازمةُ السنة في جميع الأفعال، وطلب القُوتِ من وَجهٍ حلال»**. [103]

103- انظر «مدارج السالكين» (2/ 153)، «منزلة الفقر»، ففيه عدة آثار في الباب.

الفقر لله نوعان: كوني وشرعي

بيَّن ابنُ تيمية أن الفقر لله هي حال الجميع، فلا يخرجُ عنها عاصٍ ولا مُطيع، فقال:

وهـذِهِ الحَـالُ حَـالُ الخَلْـقِ أجْمَعِهِـمْ وكُـلُّـهُـمْ عِــنْدَهُ عَـبْـدٌ لَــهُ آتِـــي

فالكلُّ فقير لله، كما أن الكلَّ عبيد لله.

وههنا إشكال: وهو أنَّه إذا كان الفقرُ والعبوديةُ مُلازِمَين لجميع الخَلق: مؤمِنِهم ومن كَفر، فكيف يُمدَحُ صاحبُهما ويَنبُلُ بين سائر البشر؟

والجواب: أنَّ التفصيل في هذا المَقام هو سبيلُ أهلِ الحق والعدلِ والإيمانِ، كما قال العلامة ابن أبي العِز الحنفي [104]: «**وكم يزُول بالاستفسار والتفصيل كثيرٌ من الأضاليلِ والأباطيل**». وما أجملَ قولَ ابنِ القيم في «النونية»:

فعَلَيكَ بالتَّفصِيلِ إِنْ هُمْ أَطلَقُوا أو أَجْمَلُـــوا فعَلَيـــكَ بالتِّبْيَـــــــانِ

وعليه، فالجواب عن هذا الإشكال أن يُقال: إنَّ الفقرَ نوعان [105]:

- **كونيٌّ اضطراري، وهو فقر عام**، لا خروجَ لبَرّ ولا فاجِرٍ عنه، وهذا لا يقتضي مدحاً ولا ذماً ولا ثواباً ولا عقاباً، بل هو بمنزلة كَون المخلوق مخلوقاً ومصنوعا.
- **وشرعي اختياري، وهو فقر خاص**، ويحصُل نتيجةَ عِلمين شريفين:
  - **أَحدهما**: معرفة العبد بربه،

104- «شرح الطحاوية» (ص 126).

105- «طريق الهجرتين» (ص 12)، بتصرف.

- **والثاني**: معرفته بنفسه. فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أَنتجتا له فقراً هو عَينُ غِناه، وعنوان فلاحِه وهُداه، وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين.

وقسَّمه ابن القيم بالنظر إلى حق الله وتوحيده إلى: [106]

- **فقر إلى ربوبية الله**، وهو فقر المخلوقات بأسرها،
- **وفقر إلى ألوهية الله**، وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين، وهذا هو الفقر النافع.

والعُبوديَّةَ كذلك نوعان: [107]

- **كونيُّة اضطراريَّة**، وهي الخضوع لأمر الله تعالى الكوني، وهذه شاملة لجميع الخلق لا يخرج عنها أحد لقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، ولقوله سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، فهي شاملة للمؤمن والكافر، والبَرِّ والفاجر، ولا يحمد عليها الإنسان لأنها بغير فعله.
- **وشرعية اختيارية**، وهي الخضوع لأمر الله تعالى الشرعي، وهذه خاصة بمن أطاع الله تعالى ورسوله، كما في قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ

106- المرجع السابق (ص 14)، بتصرف يسير.

107- «شرح ثلاثة الأصول» (ص 39)، لابن عثيمين، بتصرف.

﴿يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وهي التي امتدحَ اللهُ بها نبيَّه في أشرف المقامات وأزكى الحالات.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ [108]: «**وبالفرق بين هذين النوعين يُعرف الفرق بين «الحقائق الدينية»** الداخلة في عبادة الله ودينه وأمره الشرعي، **وبين «الحقائق الكونية»** التي يشترك فيها المؤمنُ والكافرُ والبَرُّ والفاجرُ التي من اكتفى بها ولم يتبع الحقائق الدينية كان من أتباع إبليس اللعين والكافرين برب العالمين». انتهى

والله تعالى قد أرسل الرُّسل، وأنزل الكتب، ليكونوا عبيدًا له شرعًا، كما كانوا عبيدًا له كونًا، وإلى هذا أشار الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله [109]: «**المقصد الشرعيُّ من وَضع الشريعة: إخراجُ المكلَّف عن داعية هواه، حتى يكونَ عبدا لله اختيارا، كما هو عبد لله اضطرارا**». انتهى

108- «الفتاوى» (10/ 158)، باختصار.

109- «الموافقات» (2/ 289)، ونحوه في «الاعتصام» (3/ 308).

التعفف والنهي عن المسألة وما فيها من المفاسد

ثم قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَـمَنْ بَــغى مَطْلَبـاً مِـنْ غَيْـرِ خــالِقِهِ فَهْوَ الجَهـولُ الظَّلُـومُ المُشـْرِكُ العَـاتِي

وهذا منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من جميل العبارة، ودقيق الإشارة، فإنَّه إذا كان كُلُّ عبد فقيرا لمولاه، وأنَّ هذا أمر لازم لسائر عباد الله، ظَهر بذلك أنَّ المَخلوق لا يملك له من الله شيئا، لأنَّه ضعيف مثله، مَربوبٌ مثله، مُعبَّدٌ مُذلَّل لله مثله، وبهذا قطع أطماعَه عن الخلق، وأقبل بقلبه وجوارحِه على الحق، يرجو رحمته وفضلَه، ويخافُ عذابه وبَطشَه، **لأنَّ الغِنى الحقيقيَّ هو عين الافتقار إلى الملك الجبار، والعزَّة الحقيقيَّة هي التذلُّلُ بين يديه آناءَ الليل وأطرافَ النهار، فإنَّ رؤيةَ غِنى النَّفس سببُ الطُّغيان، والاستغناءَ عن الله سُلَّمُ الهلاك والخِذلان**، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾[الليل: ٨ –١٠][110]، فلما استغنى عن ربه، حيلَ بينه وبين قلبِه، فصُرف عن التوفيق والإحسان، وسُلك به إلى طريق البُؤس والحِرمان.

ولهذا قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فَمَنْ بَغى مَطْلَباً مِنْ غَيْرِ خالِقِهِ**): أي فمن ابتغى حاجاته عند غير الله الذي خلقه وسخَّر له ما في الأرض ﴿وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[الحج: ٦٥]، (**فَهْوَ الجَهولُ**).

110- انظر «طريق الهجرتين» (ص 17)، و«تفسير السعدي» (ص 926).

وتعبيره بـ(**خالِقِهِ**): فيه إشارة إلى ما سبق الإنباه إليه، من أن الرَبَّ المالك الخالق هو الذي ينبغي التوكل عليه.

وقوله: (**فَهْوَ الجَهولُ**) أي بقُدْرَة الله الغني الذي بيده مفاتيح كل شيء، وهو (**الجَهولُ**)بدينه الذي حرَّم المسألة والمذلة للناس ولم يُبحْها إلا حالَ الضرورة.

وكذلك هو (**الظَّلُومُ**) لنفسِه بمعصية ربِّه، والتِفاتِه عنه بقلبِه، مع ما في ذلك من أذيَّةٍ للمسؤول، وإهانة للسائل.

قال شيخ الإسلام في سؤال المخلوق [111]: «**هو ظلمٌ في حق الربوبية، وظلمٌ في حق الخلق، وظلمٌ في حق النفس**». انتهى

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [112]: «**والمسألة في الأصل حرام** [113]**، وإنما أُبيحت للحاجة والضرورة، لأنها ظلمٌ في حق الربوبية، وظلمٌ في حق المسئول، وظلمٌ في حق السائل.**

111- نقل هذه العبارة عنه تلميذه ابن القيم في «مدارج السالكين» (1/ 491)، وشرحها.

112- «مدارج السالكين» (1/ 564)، ونحوه (1/ 491).

113- **اتفاقا**، وممن نقل الإجماع النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح مسلم» (4/ 138). وانظر «التمهيد» (4/ 120) لابن عبد البر، و«تفسير القرطبي» (3/ 344) عند قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، و«مختصر منهاج القاصدين» (ص 407) لابن قدامة... و«الرد على البكري» (ص 190)، وفيه فصل حسن في النهي عن سؤال المخلوق، وما يتعلق بذلك من مسائل.

وغاية ما في المسألة أنَّها مباحة إباحة الميتة للمضطر، وقد ذهب الإمام أحمد، واختاره ابن تيمية، ونقله عنه ابن القيم في «مدارج السالكين» (1/ 490)، إلى أنَّها لا تجب حتى مع الضرورة...

أما الأول: فلأنه بَذل سؤالَه وفقرَه وذُلَّه واستعطاءَه لغير الله، وذلك نوع عبودية، فوضع المسألة في غير موضعها، وأنزلها بغير أهلها، **وظلم توحيدَه وإخلاصَه، وفقرَه إلى الله**، وتوكلَه عليه ورضاه بقسمه، واستغنى بسؤالِ الناسِ عن مسألة رَبِّ الناس، وذلك كلُّه يَهضُم من حق التوحيد، ويطفئ نورَه ويَضعِف قوَّتَه.

وأما ظلمُه للمسئول: فلأنه سأله ما ليس عنده، فأوجب له بسؤاله عليه حقا لم يكن له عليه، وعرَّضه لمشقة البَذل، أو لَوْمِ المنع. **فإن أعطاه، أعطاه على كراهة، وإن منعه، منعه على استحياء وإغماض** [114]، هذا إذا سأله ما ليس عليه، وأما إذا سأله حقا هو له عنده، فلم يدخل في ذلك، ولم يظلمه بسؤاله.

وأما ظلمه لنفسِه: فإنه أراق ماءَ وجهِه، وذَلَّ لغير خالقه، وأنزل نفسَه أدنى المنزلتين [115]، ورضِي لها بأبخس الحالتين، ورضي بإسقاط شَرف نفسِه، وعِزَّةِ تَعَفُّفِه، وراحةِ قناعته، وباع صبرَه ورضاه وتوكلَه، وقناعتَه بما قُسِم له، واستغناءَه عن الناس بسؤالهم. **وهذا عين ظلمه لنفسِه، إذ وضَعها في غير موضعها**، وأخمَل شرفَها، ووضع قدرَها، وأذهب عِزَّها، وصَغَرها وحقَرها، ورضِي أن تكونَ نفسُه تحت نفس المسئول، ويدُه تحت يده، **ولولا الضَّرورة لم يُبَح ذلك في الشرع**». انتهى

114- جاء في «الفتح» (4/ 428) أنه حكي عن بعض الصالحين أنه كان إذا احتاج سأل ذميا لئلا يعاقب المسلم بسببه لو رده.

115- قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله**»، رواه البخاري (1427)، واللفظ له، ومسلم (1042)..

وزاد الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[116]**، أوجها أخرى:**

منها: أن الله يحب أن يُسأل، ويغضب على من لا يسأله، فإنَّه يريد من عباده أن يرغبوا إليه ويسألوه، ويدعوه ويفتقروا إليه، ويحب المُلِحين في الدعاء.

والمخلوق غالبًا يكره أن يُسأل لفقره وعجزه.

قال ابن السَّمَّاك: «**لا تَسأَلْ من يَفِرُّ منك إن تَسْأَلَهُ، ولكن سَلْ من أمرَك أن تَسْأَلَهُ**».[117]

ومن شعر أبي العَتاهِية:

لا تَســـأَلَنَّ أخـــاكَ يومًـــا حاجَـــةً وسَـــلِ الـــذي أبوابُـــه لا تُحجَـــبُ
اللهُ يَغضـــبُ إنْ تَركـــتَ سُـــؤالَهُ وبُنـــيُّ آدَمَ حِـــينَ يُســـأَلُ يَغضـــبُ
فاجعَـــل ســـؤالَك للإلـــهِ فـــإنما في فَضـــلِ نعمـــةِ ربِّنـــا نَتَقَلَّـــبُ

وفي الحديث قولُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يغضبْ عَلَيْهِ**»[118].

وكان يحيى بن معاذ يقول: «**يا مَن يَغضَبُ على مَن لا يسْأَلُه، لا تَمنَع من قد سأَلَك**».[119]

116- انظر «نور الاقتباس»، الرسائل (2/ 46-56)، بتصرف وزيادات.

117- «حلية الأولياء» (8/ 210)، لأبي نُعيم. نقلته من «الحلية» بلفظه الذي يختلف يسيرا عما ذكره ابن رجب. وهكذا فعلت مع جملة من الآثار التي يستشهد بها رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أعزوها وأنقلها بلفظها، إن تيسر.

118- رواه الترمذي (3373)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترمذي» (3373).

119- «صفة الصفوة» (2/ 296)، لابن الجوزي.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ [120]: «والعبدُ كلما كان أذَلَّ لله وأعظمَ افتقارا إليه وخضوعا له، كان أقربَ إليه، وأعزَّ له، وأعظمَ لقدره، فأسعد الخلق: أعظمهم عبودية لله. وأما المخلوق فكما قيل: «**احتج إلى من شئت تكن أسيرَه، واستغن عمن شئت تكن نظيرَه، وأحسن إلى من شئت تكن أميرَه**».[121]

فأعظمُ ما يكونُ العبدُ قَدْرًا وحُرمةً عند الخلق إذا لم يَحتَج إليهم بوجه من الوجوه، فإن أحسنْتَ إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظمَ ما يكونُ عندهم، ومتى احتجْتَ إليهم - ولو في شربة ماء - نَقُصَ قَدْرُك عندهم بقَدْر حاجتِك إليهم، **وهذا من حكمة الله ورحمته، ليكونَ الدينُ كلُّه لله، ولا يُشرَكَ به شيءٌ**». انتهى

قال الشاعر: [122]

مَن عَفَّ خَفَّ على الصَّديقِ لِقاؤُهُ ... وأَخو الحَوائِجِ وَجهُهُ مَمْلُولُ

120- انظر «الفتاوى» (1/ 39، وما بعدها)، وهو كلام طويل نافع في هذا الباب، أنصحك -أيها القارئ الكريم- أن تطالعه بتأمل، حتى تفهم هذا الأصل العظيم الذي جاءت به جميع الأنبياء والرسل، وهو الافتقار إلى الله والاستغناء عن كل ما سواه، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

121- نظم بعضُهم هذا المعنى بقوله:

تَفَضَّلْ على مَن شِئتَ واعْنَ بأَمرِهِ ... فأنتَ، ولو كان الأميرَ، أميرُهُ
وكُنْ ذا غِنًى عَمَّنْ تشاءُ مِن الوَرَى ... ولو كان سُلطانًا فأنت نَظِيرُهُ
ومَن كنتَ مُحتاجًا إليهِ وَوَاقِفًا ... على طَمَعٍ منهُ فأنت أَسِيْرُهُ

انظر «صيد الخاطر» (ص 259).

122- «كتاب الأمثال الحِكَم» (ص 62)، لمحمد بن أبي بكر الرازي صاحب «مختار الصِّحاح».

ومنها[123]: أن اللهَ تعالى يَستدعِي مِن عباده سؤالَه، وينادي كل ليلة: «**مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ**».[124]

وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فأي وقت دعاه العبدُ وجده سميعًا قريبًا مُجيبًا، ليس بينه وبينه حجاب ولا بَوَّاب، وأما المخلوق فإنَّه يمتنع بالحجاب والأبواب، ويعسر الوصول إليه في أغلب الأوقات.

قال طاووس لعطاء: «**إِيَّاكَ أَنْ تَرْفعَ حَوَائِجَكَ إلى مَن أَغْلَقَ دُونَكَ بَابَه، وَجَعَلَ دُونَكَ حِجَابًا، وعليك بطَلَبِ حَوَائِجَكَ إلى مَن بَابُهُ مَفْتُوحٌ لك إلى يوم القيامة، طَلَبَ منك أَن تَدْعُوَهُ، ووعَدكَ الإجابة**».[125]

ويُنسَبُ للإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قولُه [126]:

إِذَا احْتَجَبَ النَّاسُ عَنْ سَائِلٍ ... فَمَا دُونَ سَائِلِ رَبِّي حِجَابُ
يَعُودُ بِفَضْلٍ عَلَى مَنْ رَجَاهُ ... وَرَاجِيهِ فِي كُلِّ حِينٍ يُجَابُ

وكان بكرٌ المُزنيُّ يقول: «**مَن مِثلُك يا ابنَ آدمَ؟! متى شِئتَ تَطَهَّرتَ ثم ناجَيْتَ رَبَّكَ، ليس بينَك وبينَه حِجابٌ ولا تُرْجُمان**».

123- من أوجه منع المسألة وما فيها من مفاسد.

124- في حديث «النزول» المتواتر، الذي رواه البخاري (1145)، ومسلم (758). وانظر في مسألة النزول الإلهي كتاب المؤلف «نهج الاقتصاد».

125- «حلية الأولياء» (4/ 11).

126- «ديوان الإمام الشافعي» (ص 29).

وأنشدوا في هذا المعنى:

قُــلْ للَّــذينَ تَحَصَّــنُوا عَــن ســائِلٍ بمَنَـــازِلٍ مِـــن دُونِهـــا حُجَّـــابُ

إنْ حـــالَ دُونَ لِقـــائِكُمْ بَـــوَّابُكمْ فـــالله لَـــيسَ لبابِـــهِ بَـــوَّابُ

وفي النهي عن مسألة المخلوقين أحاديثُ كثيرة صحيحة وصريحة [127]، حذَّرنا فيها الناصح الأمين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من ذُلِّ المسألة للناس، وأخبر أن الذي يسأل في غير حاجة معدود في الآخرة من أهل الإفلاس، وأمرنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسؤال الله من فضله، وإنزال الحاجة به، وإظهار الفاقة بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، **ومن ذلك:**

قولُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَزَالُ المسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللهَ، وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ**»[128]، لأنّه أذهبَ عِزَّ وجهِه وصِيانَتَه وماءَه في الدنيا، فأذهبَ اللهُ مِن وجهِه في الآخرة جمالَه وبهاءَه الحِسي، فيَصير عظمًا بِغير لحم، ويذهبُ جمالُه وبهاؤه المعنوي، فلا يبقى له عند الله وَجاهَة.[129]

قال القاضي عياض المالكي رَحِمَهُ اللهُ [130]: «**مُزْعَةُ**: أي قطعةُ لحم، **وقيل**: **معناه**: يأتي يوم القيامة ذليلاً ساقطاً لا وجه له عند الله، **وقيل**: هو على ظاهره، يحشر وجهُه

127- انظر في هذا الموضوع كتاب «**ذم المسألة**» للعلامة مقبل بن هادي الوادعي رَحِمَهُ اللهُ، ومقالا نافعا بعنوان: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**»، للعلامة محمد الخضر حسين التونسي رَحِمَهُ اللهُ، ضمن «موسوعة الأعمال الكاملة» (18/ 119-127).

128- البخاري (1474)، ومسلم (1040)، واللفظ له.

129- قاله ابن رجب في «نور الاقتباس»، الرسائل (2/ 47).

130- «إكمال المعلِم بفوائد مسلم» (3/ 574)، باختصار.

عظماً دون لحم، عقوبة من الله، وتمييزاً له وعلامة بذنبه لما طلب المسألة بالوجه، كما جاء في الأحاديث الأخرى من العقوبات في الأعضاء التي كان بها العصيان، **وقيل**: ليس على وجهِه لحمٌ يَقِيه حرَّ شمس المحشر، وهذا ضعيف». انتهى

قلت: وكأن هذا الوجه الذي ضعَّفه القاضي قد مال إليه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث أتبع هذا الحديثَ من «**صحيحه**» في باب: «**مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكَثُّرًا**»، بحديث «**إِنَّ الشَّمْسَ تَدْنُو يَوْمَ القِيَامَةِ**»، وكأن السر فيه أن صاحب المسألة يأتي يوم القيامة ولا لحم بوجهه، فتكون أذيةُ الشمس له أكثر من غيره. [131]

قال الشاعر: [132]

مــا اعتَــاضَ بــاذِلُ وَجهِــهِ بِسُــؤالِه ... بَــدَلاً وإِنْ نــالَ الغِنَــى بِسُــؤالِ
وإذا السُّــؤالُ مَــعَ النَّــوالِ وَزَنْتَــهُ ... رَجَــحَ السُّــؤالُ وخَــفَّ كُــلُّ نَــوالِ
فــإذا ابتُلِيــتَ بِبَــذلِ وَجهِــكَ ســائِلاً ... فابذُلْــــهُ للمُتَكَــــرِّمِ المِفْضَـــالِ

وكان الإمام أحمد يقول في سجوده: «**اللَّهُمَّ كَمَا صُنْتَ وَجْهِي عَنِ السُّجُودِ لِغَيْرِكَ فَصُنْ وَجْهِي عَنِ المَسْأَلَةِ لِغَيْرِكَ**». [133]

وما أحسنَ قولَ الحسن بنِ عُبَيْدٍ البَغداديِّ: [134]

صُــنِ الوَجــهَ الــذي إنْ لم تَصُــنْهُ ... بَقِيــتَ وأنــتَ في الــدُّنيا ذَلِيــلُ

131- انظر «فتح الباري» (3/ 427) لابن حجر.

132- «بهجة المَجالس وأنس المُجالس» (1/ 168)، لابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

133- «حلية الأولياء» (9/ 233).

134- «بهجة المَجالس» (1/ 168.

وعِـــشْ حُـــرًّا ولا يَحْمِلْـــكَ ضُرٌّ   عـــلى مَرعًـــى لـــهُ غِـــبٌّ وَبِيـــلُ

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللهِّ أوشك الله لَهُ بالغنى إِمَّا بِمَوْتٍ عَاجِلٍ أَوْ غِنًى آجِلٍ**». [135]

وقبيحٌ بمن عرف التوحيد، أن يتعرَّضَ لسؤال العبيد، وهو يجِدُ عند مولاه كُلَّ ما يُريد. [136]

ولهذا بايع النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جماعةً من أصحابه على أنْ لا يسألوا النَّاسَ شيئاً، منهم: أبو بكر الصدِّيق، وأبو ذر، وثوبان، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وكان أحدُهم يَسقُطُ سَوْطُه أو خِطامُ ناقَتِه، فلا يَسألُ أحداً أنْ يُناوِلَه إياه. [137]

وقد قيل: [138]

إنَّ الوُقـــوفَ عـــلى الأَبـــوابِ حِرْمَـــانُ   والعَجْـــزُ أَنْ يَرْجُـــوَ الإنســـانَ إنســـانُ
حتـــى تُؤَمِّـــلَ مَخلوقـــاً وتَقصِـــدهُ   إن كـــانَ عِنـــدك بـــالرحمنِ إيـــمانُ
عَطـــاؤُه لَـــكَ إنْ أَعطاكَـــهُ ضَـــعَةٌ [139]   فكيْـــف إنْ كـــان بَعـــدَ المَطْـــلِ حِرمـــانُ
ثِـــقْ بالَّـــذي هُـــوَ يُعطِـــي ذا ويَمْنَـــعُ ذا   في كُـــلِّ يـــومٍ لَـــهُ في خَلقِـــهِ شـــانُ

135- رواه أحمد (3869)، أبو داود (1645)، والترمذي (2479)، وصححه الألباني، وانظر كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ على الحديث رواية ودراية في «السلسلة الصحيحة» (2787).

136- انظر «مدارج السالكين» (1/ 491).

137- انظر «صحيح مسلم» (1043).

138- «بهجة المَجالس» (1/ 171).

139- أي ذُلٌّ وهَوَانٌ ودَناءةٌ. انظر «النهاية في غريب الحديث» (ص 727)، «ضعة».

وقد وصَّى النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلا فقال له: «**وَأَجْمِعِ الْإِيَاسَ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ**»[140]، وفي هذا الوصية بتوطين النفس على التعلق بالله وحده، في أمور معاشه ومعاده، فلا يسأل إلا الله، ولا يطمع إلا في فضله. ويوطن نفسَه على اليأس مما في أيدي الناس، فإن اليأس عِصمة، ومن أيِس من شيء استغنى عنه.

فكما أنه لا يسأل بلسانه إلا الله، فلا يُعَلِّق قلبَه إلا بالله، فيبقى عبداً لله حقيقة، سالماً من عبودية الخلق، قد تحرر من رقِّهم، واكتسب بذلك العِزَّ والشرف، **فإنَّ المتعلِّق بالخلق يكتسب الذلَّ والسقوط بحسب تعلقه بهم.** [141]

وقد كان السَّلفُ يجتنبون مثلَ هذه المواقف، حتى قال مطرِّف بن الشِّخير: «**إذا كانت لأحدِكم إليّ حاجةٌ فليَرفَعْها في رُقْعَـة ولا يُواجِهني بها، فإني أَكرَه أنْ أَرى في وجه أحدِكم ذُلَّ المَسألة**».[142]

إنَّ المَســــائِلَ للرِّجــــالِ مَذلَّـــــةٌ تَفْنَــــى مَنافِعُهــــا ويَخْلُـــدُ عارُهـــا

قلت: ومن جلالة هذا الأمر أن أهلَ السنة دونوه في العقائد، ومن ذلك قول أبي عبد الله محمد بن خفيف رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الذي صنفه في «الاعتقاد» [143]: «ونقول: إن ترك المكاسب غير جائز إلا بشرائط مرسومة من التعفف والاستغناء عما في أيدي الناس، **ومن جعل السؤالَ حِرْفَةً وهو صحيح، فهو مذموم في الحقيقة**». انتهى

140- رواه أحمد (23498)، وابن ماجه (4171)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (401).

141- «بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار» (ص 200)، لابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

142- «بهجة المَجالس وأنس المُجالس» (1/ 168).

143- نقله عنه شيخ الإسلام في «الحموية» (ص 457).

وأُنبِّهُ في خاتمة هذا المبحث أنَّ الطلبَ العاديَّ –بلا إلحاح مسألة–لا يُذَم، **فمُجَرَّد أن تطلبَ من أخيك شيئا** –قد ينفعك الله به كما لو طلبته أن يعيرك كتابا– **فهذا شيء مُتعارَفٌ عليه ولا بأس به**، حتى ذمَّ اللهُ الذين يمنَعون الماعون، فلا يُعيرون ما يُنتفع به مما جرت العادة ببذله والسماحة به.[144]

144- أفادني بهذا شيخنا عبد الله العنقري –زاده الله توفيقا–.

ما لا يقدر عليه إلا الله لا يُطلبُ من غيره

وأما إن كانت مسألتُه من ميِّتٍ، أو من حيٍّ ولكن فيما لا يقدر عليه إلا الله، كانت ظلمًا أكبرَ، وكُفرًا أكبرَ، وشركًا أكبرَ إجماعًا[145]**، لا يغفره الله إلا بالتوبة منه،** لأنَّ الميّت لا يستطيع الإجابة لعدم قدرته على ذلك، والله يقول: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر: ١٤]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[الأحقاف: ٥ – ٦]، وهذا نصّ صريح أنّ دعاء الأموات شرك وكفر.

قال ابن تيمية [146]: «**فأما ما لا يقدر عليه إلا الله، فلا يجوز أن يُطلب إلا من الله، لا يُطلب ذلك من الملائكة، ولا من الأنبياء، ولا من غيرهم**». انتهى

وفي الحديث قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لابنته الحبيبة: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**» [147]، **وفيه: أنه لا يجوز أن يسأل العبدُ إلا ما يقدر عليه من أمور الدنيا.** وأما الرحمة والمغفرة والجنة والنجاة من النار ونحو ذلك من كل ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فلا يجوز أن يطلب إلا منه تعالى،

145- انظر «الرد على البكري» (ص 199، 405).

146- انظر «الرد على البكري» (ص 184، 194، 237، 405...)، و«الفتاوى» (1/ 329)، وانظر «فتح المجيد» (ص 203، 460، 572).

147- البخاري (4771)، واللفظ له، ومسلم (206).

فإن ما عند الله لا ينال إلا بتجريد التوحيد، والإخلاص له بما شرعه ورضيه لعباده أن يتقربوا إليه به، فإذا كان لا ينفع بنته ولا عمه ولا عمته ولا قرابته إلا ذلك، فغيرهم أولى وأحرى. وفي قصة عمه أبي طالب مُعتبر. (148)

قلت: وتفصيل هذا كلِّه في كتب العقيدة والتوحيد، التي اعتنت ببيان حق الله العلي الحميد، وما يضاده من الشرك والتنديد. (149)

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَــمَنْ بَــغى مَطْلَبــاً مِــنْ غَيْــرِ خـــالِقِهِ   فَهْـوَ الجَهـولُ الظَّلُـومُ المُشــْرِكُ العَـاتِي

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦]، فسمى المُشرك ظالمًا، وقال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴾[الزمر: ٦٤]، فسمى المُشرك جاهِلًا، وبيَّنَ عاقِبَتَه في الدنيا بإحباط ما له من الحسنات، فقال: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥]، وبيَّن منزلته يوم القيامة في أَخَسِّ الدركات، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ [المائدة: ٧٢]... والقرآن كله في تقرير هذا الأصل المتين، والتدليل عليه بصُنوف من الآيات والبراهين، ولكن اللهَ يطبعُ

148- «فتح المجيد» (ص 203)، لعبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

149- انظر: «شرح القواعد الأربع»، «والتعليق على نظم المهات من كشف الشبهات»، للمؤلف غفر الله له، ففيهما نقولات كثيرة في هذا الباب عن علماء السنة والتوحيد.

﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**المُشْرِكُ العَاتِي**): أي الذي عتا عن أمر ربه، فتمَرَّدَ عليه، وتجاوز حدود شرعه.

والعُتُوُّ: تجاوز الحد في الكِبر والظلم [150]، ولا ظلمَ أعظمُ من الشرك بالله جلَّ وعلا، إذ هو صرف لحق الله تعالى لغيره، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غَنيٌّ عن الشركاء، وجميعُهم إليه فقراء، وفي الحديث القُدسي: «**قَالَ اللهُ تبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**». [151]

150- انظر «التحرير والتنوير» (8/ 226)، (19/ 6)، لابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

151- رواه مسلم (2985).

خاتمة القصيدة

ثم خَتمَ الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه القصيدة العَذبة بقوله:

والحَـــمْدُ للهِ مِـــلْءَ الكَـــوْنِ أجْمَعِـــهِ ما كـانَ مِنْـهُ ومـا مِـنْ بَعْـدُ قَـدْ يَـاتِـي

فختم هذه الأبيات بحمد لله والثناء عليها، و(**والحَمْدُ لله**): وصف المحمود بصفات الكمال محبَّةً وتعظيمًا، والـ(**أل**) في كلمة (**الحمد**) للاستغراق، وهي الداخلة على واحد من الجنس، لإفادة الشمول والاستغراق، وعلامتها: صحة وقوع (كل) مكانها [152]، والمعنى هنا: كلُّ المحامد حاصلةٌ لله جَلَّجَلَالُهُ.

وقوله: (لله): أي مُستَحقًّا كلُّه لله، فاللام هنا للاستحقاق والاختصاص، و«الله» عَلَمٌ على الذات الإلهية، وهو اسم ربنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا يسمى به غيره، كاسم «الرحمن»، ومعناه: المألوه، أي المعبود محبَّةً وتعظيماً.

والحمد لله على نوعين: [153]

- **حمد هو شكر**، وذلك لا يكون إلا على نعمته،
- **وحمد هو مدح**، وثناء عليه، ومحبة له، وهو ما يستحقه لنفسه سبحانه.

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والحَمْدُ لله مِلْءَ الكَوْنِ أجْمَعِـهِ**): أي أُثني على الله محبةً وتعظيمًا، (**مِلْءَ الْكَوْنِ أَجْمَعِهِ**): أي حمدًا يملأ الكون جميعا، فإنَّ الله تعالى يُحبُّ من عباده

152- وموضع هذا في كتب اللغة عند الكلام على «المُعَرَّف بأداة التعريف»، وفي كتب الأصول عند الكلام على «العام».

153- انظر «الفتاوى» (10/ 84).

أن يحمدوه، وعلى نعمه أن يشكروه، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]، وقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨]... فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده، ولهذا سبح بحمده السموات السبع والأَرض ومن فيهن: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وكان النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول عند الاعتدال من الركوع: «**رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ، مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ**» (154)، فله سبحانه الحمد حمداً يملأُ المخلوقات والفضاء الذى بين السماوات والأرض، ويملأُ ما يقدر بعد ذلك مما يشاءُ أَن يملأَ بحمده. (155)

وفي «نونية ابن القيم»: (156)

وهْوَ الحمِيدُ فكُلُّ حَمْدٍ واقِعٌ أوْ كَــانَ مَفْرُوضًــا مَــدَى الأزمَــانِ
مَلأَ الوُجُودَ جَمِيعَهُ ونَظِيرَهُ مِــنْ غَــيْرِ مَــا عَــدٍّ ولا حُسْــبَانِ
هُوَ أَهْلُهُ سُبحانَهُ وبِحَمدِهِ كُــلُّ المَحامِــدِ وَصْــفُ ذِي الإحسَــانِ

154- رواه مسلم (471).

155- انظر «طريق الهجرتين» (ص 118، وما بعدها)، و«عدة الصابرين» (ص 138، وما بعدها).

156- انظر «الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين» (ص 27)، لابن سعدي.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ [157]: «**ومِن فضله أنَّه نسب الحمدَ والشُّكر إليهم، وإنْ كان من أعظم نِعَمِه عليهم**، وهذا كما أنَّه أعطاهم ما أعطاهم من الأموال، ثم استقرض منهم بعضَهُ، ومدحهم بإعطائه، والكلُّ ملكُه، ومِن فضله». انتهى

ثم قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ما كانَ مِنْهُ وما مِنْ بَعْدُ قَدْ يَاتِـي)**: هكذا، بالتخفيف **(يَاتِـي)** للوزن الشعري، و**(ما)** في قوله: **(ما كانَ مِنْهُ وما مِنْ بَعْدُ قَدْ يَاتِـي)** من صيغ العموم، وقصده -والله أعلم- أنَّ اللهَ يُحمد حمدًا يملأُ الكونَ أجمعَه على ما أعطى، وما يعطي، وما سيعطي.

وهذا الحمدُ كائنٌ عند حصول المرغوبات وعند حلول المرهوبات، **فإنَّ اللهَ يُحمَدُ في جَمِيع مفعولاته، إِذْ كُلُّ نعْمَة منه فضل، وكل نقمة منه عدل**، ولهذا استحقَّ أن يكونَ مَحمُودًا على كل حال، ويَستحِقُّ أَن يُحمَد على السَّرَّاء والضَّرَّاء. [158]

وكان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذا رأى ما يُحِبُّ قال: «**الحمْدُ لله الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ**»، وإذا رأى ما يكرهه قال: «**الْحَمْدُ للهَّ عَلَى كُلِّ حَالٍ**». [159]

وهذا آخر الشرح والبيان على هذه الأبيات اللطيفة، والتفصيل لما فيها من المعاني الشريفة، والتوفيق من عند الله الكريم وحده، وهو المُنعِم المتفضِّلُ على عبده، يهدي من يشاء بفضله، ويُضلُّ من يشاء بعدله، ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾

157- «جامع العلوم والحكم» (ص 384).

158- «الفتاوى» (10/ 85).

159- رواه ابن ماجه (3803)، وغيره، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (265).

[الرعد: ٤١].

أسأل الله العلي العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى أن يرحمَ شيخَ الإسلام أحمدَ ابنَ تيمية، وأن يُسكنَه فراديس جِنانِه، لقيامه بنُصرة الدين بسَيفه ولسانه وبَنانِه، كما أسأله جَلَّجَلَالُهُ أن يجعلني وإياكم ممن حقَّق المَسكنةَ والخُضوعَ والافتقار لله، وعاش مُستَغنيًا بربِّه عن كل ما سواه.

هذا، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وآلِه وصحبه وسلم.



فهرس الموضوعات